

رضا الزواری

... في الفكر الجدلي

دراسة تحليلية نقدية ونصوص

منشورات  عيون

146.32
سوا
6

... في الفكر الجدلي

دراسة تحليلية نقدية ونصوص

الكتاب : في الفكر الجدلي
المؤلف : رضا الزواري
الناشر : عيون المقالات. ص.ب 6714 سيدي عثمان — البيضاء
الطبعة : الثانية الدار البيضاء 1987
المطبعة : النجاح الجديدة — الدار البيضاء

الإيداع القانوني رقم 1987/707

طرح القضية

تستقي هذه السطور شرعيتها من الوضع المتنازم الذي يعيشه الفكر المادي الجدلي والممارسة السياسية التي نبعت منه. هذه الازمة تنسم بالكلية والشمول لانها تخللت النظرية وممارساتها العملية. اقول ازمة الفكر والممارسة لان طرح المسألة كما قام به الفلاسفة الجدد يبدو لي عاجزا عن فهمها. لانه يعتبر ان للفكر فعالية مطلقة. وكان الواقع جملة من الاحداث المحايدة والبريئة الخالية من كل فعالية خاصة تشق الفكر فتفجر تماسكه كما ان الطرح المقابل الذي يبرء الفكر ويعتبر ان الممارسة مذنبية لا يعدو ان يكون موقفا تبريريا يعتبر ان « التطبيق هزيمة » فيلج على نقاوة الفكر. ويقفز على المشكلة فيبقيها بدون حل.

ان الازمة مولدة وخلقة فهي بزعتها للبديهيات تجبر العقل على اخذ موقف المفكر في التصورات والممارسات فهي وحدها التي تدفع الى العودة الى ما اعتبرناه يقينا لتسأله عن شرعيته ولتتمكن من إعادة طرح الاسئلة التي كانت تبدو قبل ذلك الوقت مستحيلة وتتمكن من ايجاد الاجوبة بهدف انقاذ الفكر او بهدف الاجهاز عليه.

فلا يوجد فكر يسمح لنفسه بالازلية ولا ممارسة تعتبر نفسها دائمة. وبما انهما ابتكاران انسانيان فانهما

معرضان دائما للمراجعة والنقد وحتى للموت. قد يعز علينا ذلك ويحز في نفوسنا لكن مسار التاريخ لا يتجه دائما حسب اهوائنا. ان هذه الصفحات ناتجة عن شعور حاد بالازمة وما فتحت من تساؤلات جدية حول الفكر المادي الجدلي، تجبر على الوقوف عنده والتفكير فيه واخذ موقف له او عليه. فكما ان الموت يمكن ان يحيط بالفكر فمن الممكن كذلك ان يتواصل هذا الفكر لكنه يستمر مهزوما ومخدولا. فالقضية لم تعد قضية خيار فحسب لان حدة الازمة لم تعد تسمح بالانحلال. قد يجيب البعض بأن الازمة موجودة فعلا ولكنها في عقولنا وليست في الفكر المادي الجدلي لذلك علينا بمعالجة انفسنا ولنتترك الفكر وشأنه. ان هذا الجواب لا يعدو ان يكون هروبا وتعاليا بالفكر وكأنه يمثل ذاتا مستقلة ومنفصلة عن جملة تصوراتنا وممارساتنا. فهو موقف انتصاري يبقى على الفكر لكنه يدفع به لا محالة الى الخشرفة ويقضي عليه.

لذلك لنبتعد عن المواقف الانتصارية ولنقبل التحدي ولننتصب في الميدان لا كمدافعين بل كمغامرين لعلنا نتفطن الى نقاط القوة ومواطن الضعف في هذا الفكر ونخرج بعد ذلك منتصرين او لنخرج ونحن نحمل دفيننا على اعناقنا لنؤبته ونولي انظارنا وجهة اخرى. فلا فائدة في فكر مريض

قلنا ان الفكر المادي الجدلي يعيش ازمة لكن طرح السؤال على هذا الشكل يبقى على كثير من الغموض. فما هو الفكر المادي الجدلي؟ هل يمثل وحدة فكرية وعملية يمكن الاتفاق عليها. كاتفاقنا على ان هذا الشيء هو كأس، او شجرة؟ اذا كان ذلك كذلك فكيف نفسر الاختلاف الموجود حول الفكر المادي الجدلي الذي يؤدي في بعض الحالات الى صراع مميت؟ ان الواقع يعكس لنا مواقف وتصورات وممارسات كلها تعتبر نفسها مادية جدلية فايها سنختار للاعتماد عليها في تعريفنا للفكر المادي الجدلي؟

يجيب البعض بأن المادية الجدلية الصحيحة هي التي تتأكد في التجربة. ولكن ليس هناك أفكار مادية جدلية عديدة تأكدت في التجربة؟ ثم ما معنى أنها تتأكد في التجربة؟ أية تجربة؟ التجربة المخبرية أم الممارسة الانسانية؟ إذا كانت التجربة المخبرية هي المثبتة فهو جواب لا معنى له لأن المادية الجدلية لا تملك مخابر وأن كان القول أنها الممارسة فهذه الأخيرة قد أكدت العديد من الممارسات التي تدعي الانتماء الى المادية الجدلية فعلى أيها سنعتمد؟ قد يقول البعض نعتمد ما نعتقد صحيا. لكن من أين نستقي هذه الشرعية؟ قد يقال اننا نستقيها من انطباق افكارنا مع من اسسوا الفكر المادي الجدلي. الا يسقطنا هذا في موقف نصي ومنطق دائري فنؤكد الفكر بالفكر؟ اليس هذا هو اقصى المواقف مثالية؟ فما معنى ان نحكم على الفكر بالفكر ونترك الممارسة؟ إذن ما العمل؟ اعتقد ان لا مفر من طرح السؤال الذي يبدو للبعض الجواب عنه بديهيا وهو ما المادية الجدلية؟ والقيام في مرحلة اولى بالتعرض لجملة الاجوبة التي قدمت لا للتوفيق بينها والخروج بتعريف شكلي لايعني شيئا. بل للقيام بمواجهة التعريف بقوله الداخلي ومنطقه الخاص اي بمواجهة مع جملة اعتماداته النظرية ومن بينها ان الفكر يحدد بالممارسة وان للفكر فعالية خاصة على الممارسة في هذا الاطار يمكن ان نتعرض لثلاث اجوبة اساسية قدمت تاريخيا حول الفكر المادي الجدلي . وان وجدت تصورات اخرى غيرها فهي تعود في اخر الامر الى احدها او هي تتفرع عنها.

الموقف الاول : الموقف الانطولوجي

يعتبر هذا الموقف المادية الجدلية علم الوجود والوجود يمثل وحدة تتضمن الطبيعة والمجتمع. فالمادية الجدلية تعكس الوجود (نظرية المعرفة/انعكاس) كما هو بدون زيادة ولا نقصان. فالوجود متناقض ومتحرك والمادية الجدلية تمثل هذا الوجود في مستوى العقل. فقوانين الوجود تنعكس في

المادية الجدلية في حقيقتها وهذه الاخيرة تمثل الوجه الثاني للوجود فهي صورة الوجود وقد اصبحت عقلا. فالمادية الجدلية بهذا المعنى هي الحقيقة العقلية للوجود المادي. ففيها يتبدى الوجود في ماهيته وفي ذاتيته فهي تمثل المطلق لانها تعكس الوجود فكريا. فلا يمكن ان نضيف عليها ولا ان ننقص منها ولا ان نكذبها لانها تمثل الوجود في صدقه الفكري. فالحياد عنها او تكذيبها هو ابتعاد عنه وتكذيب له واذن فهو سقوط في الخطا والوهم. فلا يوجد اي فكر اخر غيرها يقول الوجود لان الوجود قد وجد جوهره فيها. فهي الصدق المطلق والحق المطلق. فقوانين الجدال هي انعكاس لحركة الطبيعة. نفي النفي يعكس نمو الظواهر الحية (البذرة، الشجرة، الثمرة) وقانون التحول من الكم الى الكيف هو الصيغة العقلية لتحول درجات الماء في غليانه وبرودته، وقانون التناقض هو الكهارب السالبة والموجبة. نفس التصور نجده في المجال الاجتماعي فنفي النفي هو البورجوازية وقد نفت الاقطاع وهو البروليتاريا وقد نفت البورجوازية. . .

لقد استقى هذا الموقف الانطولوجي جذوره من عملية القلب التي قام بها ماركس وانجلز لقوانين الجدال الهيجلي. فالنواة الجدلية التي كانت تمشي على راسها وقع قلبها على رجليها. فقوانين الجدال عند هيجل هي تجلي العقل في الواقع وهنا يكمن خطأ هيجل حسب ماركس وانجلز لذلك يجب ان نقلب المعادلة لتصبح قوانين الجدال انعكاسا للواقع. ان الوجود جدلي لا لان قوانين العقل قد طبعت الوجود بل لان الوجود جدلي وقد تبدى في القوانين العقلية.

سنلاحظ في مناقشتنا لهذا الموقف كيف ان عملية «القلب» ابقت على جوهر الموقف الهيجلي وحولت المادية الجدلية الى موقف عقلاني مثالي لا يختلف في اساسه عن الموقف الهيجلي. اكثر من ذلك فان الموقف الهيجلي يبقى على قوته لان عملية

«القلب» لم تتمكن من تحطيم تماسكه ومنطقه فلم تقدر على تحويله بل هي التي انزلت تدريجيا الى مجاله وميدانه.

الموقف الثاني : العلماني الوضعي

يؤكد على علمية المادية الجدلية في مجال التاريخ. فهي تؤسس علما بنفس الدرجة التي نقول بها ان الفيزياء علم والكيمياء علم. فهي تؤسس نظرية تفسيرية للمواقع التاريخي فتبني قوانين. هنا الثعلم يتمثل في المادية التاريخية او علم التاريخ او علم المجتمعات الانسانية. يمدنا كل من ماركس وانجلز في كتابهما «الايديولوجيا الالمانية» بتاريخية نشأة هذا العلم حيث يعتبر ان هذا الكتاب بمثابة خط فاصل بين وعيهما لما قبل علمي الهيجلي والفورباخي وتصورهما العلمي المتمثل في المادية التاريخية. اما اللحظة المؤسسة لهذا العلم فهو «راس المال» الذي اكتشفت فيه قوانين نمط الانتاج الراسمالي. هذه القوانين تعمل بحتمية صارمة كالحتمية الطبيعية. وهو ما يفسر كثرة المقارنات التي يستعملها ماركس بين قوانين المجتمع الراسمالي وقوانين الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا. والصور الطبيعية المستعملة لتؤكد حتمية هذه القوانين فكما «لا يمكن ان نقيم شخصا بما يقوله على نفسه، كذلك لا يمكن ان نقيم مجتمعا بما يقوله عن نفسه» هذا ما يؤكد ماركس لابرار ان قوانين المجتمع لا تابه بالناس فهي تشق طريقها الحتمي غير عابئة بهم. فالمجتمع هو تكوينة خارجة عن نطاق وعي الافراد بها فهي سابقة لهم كأسبقية الطبيعة على الوعي.

ان هذا الموقف لا يختلف في اساسه عن الموقف الذي يعبر عنه كل من كونت ودوركايم فكلهما يعتبر ان تأسيس علم الاجتماع يرتبط بموقف ابستمولوجي ينطلق من اطروحة اساسية وهي اسبقية المجتمع على الافراد فهو اي المجتمع

سابق لهم زمنيا ومعرفيا. فخارجية الظاهرة الاجتماعية تجعل منها شيئا. هذا «التشبيء» للعلاقات الاجتماعية هو الشرط الضروري لتمثل الواقع الاجتماعي تمثلا علميا.

ان هذا الموقف العلماني الوضعي الذي يتخلل كتابات ماركس وبالخصوص انجلز يصبح تصورا طاغيا في مواقف الماركسيين اللاحقين فلينين يؤكد «ان الماركسية ستنتصر لانها تمثل الحقيقة» اما ستالين فهو يعتبر ان قوانين المادية التاريخية متأكدة حتما وكل ما يخالفها فهو خطأ وايدولوجيا. فهي اي المادية الجدلية تؤكد نفسها بنفسها ولا تحتاج الى شيء خارج عنها يؤكدها. ويصل هذا الموقف الى اعتقاد في صحة المادية الجدلية. يؤكد الرجوع الى استشهادات من النص الماركسي. فالاستشهاد بالقول الماركسي (ماركس، انجلز، لينين) هو تأكيد لصحة قول ستالين لان القول المؤسس يمثل الحقيقة، فما ينبع منه هو حقيقة فكل ما تؤكد المادية الجدلية، يمثل علما ومعرفة وحقيقة وكل ما يخالفها هو وهم وخطأ. فقوانين ماندال Mendel في الوراثة خاطئة لانها تخالف قوانين الجدل. بالمقابل فان افكار لسنكو Lyssenko في الوراثة صحيحة لانها نابعة عن قوانين المادية الجدلية. بهذه الطريقة تمت عملية انزلاق تدريجي من موقف يعتبر ان المادية الجدلية والتاريخية اسست علما في مستوى الفيزياء والكيمياء الى موقف تصبح فيه المادية الجدلية والتاريخية مثبتة لكل قول علمي. فصدق القول المادي الجدلي هو صدق كوني كل ما ينطبق عليه هو علم وكل ما يخالفه هو خطأ. فقوانين ماندال Mendel ليست خاطئة لان بنائها العلمي في مجالها الخاص لا يثبتها بل لانها تخالف المادية الجدلية والمنطق الصوري الرياضي لا يدرس في الجامعات لانه مناقض للفكر المادي الجدلي.

من المؤكد ان هذا التصور الاخير الذي يبرز بقوة عند ستالين وعند كاوتسكي لا نجده بنفس الوضوح عند انجلز

وماركس وبالخصوص عند هذا الاخير. لكنه ليس غريبا عنهما فالعلاقة بينهما ليست علاقة خارجية بل علاقة داخلية، فهنو متضمن في موقفهما الذي يمثل شرطا من شروط امكانه.

في هذا المجال لا يمكن ان نمر بدون ان نعرج على الثوسر Althusser فقد اعطى للموقف العلماني الوضعي طابعه النظري الناجز وفي نفس الوقت اوصله الى طريق مسدود حتم تجاوزه. فقد طرح على المادية الجدلية والتاريخية جملة من الاسئلة الابستمولوجية بهدف اتمام بنائها العلمي :
- السؤال الاول : بأي طريقة نستطيع تأكيد علمية المادية التاريخية؟

- السؤال الثاني : هل المادية الجدلية علم ام فلسفة ؟
لا اريد ان اقف على كل تفاصيل المدرسة اللثوسرية لان مواقفها تحتوي على كثير من التعديلات الهامة كما سنرى. لكنني ساكتفي بالتوقف عند اللحظات الحاسمة في هذا الموقف. عن السؤال الاول اي شروط علمية المادية التاريخية، يجيب الثوسر في مرحلتين :

المرحلة الاولى : بالعودة الى ماركس والى القول الابستمولوجي (بالخصوص باشلار). فالمادية التاريخية علم لانها «قطعت» مع الايديولوجيا كقولنا ان الفيزياء علم لانها «قطعت» مع الايديولوجيا ارسطو. والكيمياء علم لانها «قطعت» مع القول الايديولوجي الماقبل «لافوازي» ضمنيا يعتبر الثوسر ان المادية التاريخية تخضع لنفس شروط علمية العلوم الاخرى (رياضيات، فيزياء، كيمياء) فهو يؤكد ان الماركسية بنت مجال علم جديد هو التاريخ. وذلك بنقدها لكل ما هو ايديولوجيا ما قبل علمية، اقتصاد سياسي بورجوازي وفكر طوباوي وهيكلية وفورباخية. اذن فشروط علمية المادية التاريخية هي شروط علمية ما اتفق على تسميته «بالعلوم الصحيحة».

المرحلة الثانية : ان المتتبع لكتابات الثوسر Althusser يشعر بالحرع والتردد الذي ينعكس فيها حول هذه القضية. كيف يمكن اعتبار المادية التاريخية علما بنفس درجة العلوم الاخرى بدون التاكيد على انها تخضع لنفس الشروط العلمية للعلوم الاخرى، اي الاستدلال المنطقي والتثبت التجريبي مع العلم ان هذا التثبت لا يكون الا مخبريا (باستثناء الرياضيات) فمجال المادية التاريخية هي المجتمعات او انماط الانتاج ولا يمكن اعادة انتاج الواقعة الانسانية مخبريا كما تقوم به الفيزياء، والكيمياء بصفة مستمرة.

هذا الحرع هو الذي حمل الثوسر على نقد قول «العلم» في مفهومه العام وعوضه بمقولة «العلوم» فليس هناك علم بالمعنى العام Science بل هناك علوم Sciences وكل علم له شروط علميته الخاصة به. بهذه الطريقة فانه يعتبر ان المادية التاريخية علم لكنها ليست كبقية العلوم، فهي علم في حاجة الى بناء شروط صدقيه، !!

ما هي هذه الشروط؟ كيف يمكن بناؤها؟ لقد بقي الخطاب الالثوسري صامتا ولم يجب عن هذه الاسئلة.

ان هذا الصمت هام جدا وستتعرض اليه في ما بعد لنرى معناه، هل يعني صعوبة الامكان ام الاستحالة.

اما في ما يخص المادية الجدلية فالموقف الالثوسري يمثل تحولا هاما عن الموقف الانطولوجي والموقف العلماني الوضعي بالرغم من انه لم يستطع التخلص من هذا الاخير تخلصا تاما، فالمادية الجدلية ليست علما، وقوانين الجدل ليست قوانين لان ذلك يسقطنا في موقف وضعي ان تصبح المادية الجدلية علم العلوم. مقابل ذلك يؤكد الثوسر على انها اي المادية الجدلية لا تعدو ان تكون فلسفة، وما يسمى بالقوانين هي جملة مبادئ او طروحات، فبما ان كل علم ينشأ يفرز فلسفة فان

المادية التاريخية قد افرزت فلسفتها المتمثلة في المادية الجدلية. في بعض الحالات يتجه الثوسر الى جعل المادية الجدلية ابستمولوجيا الممارسة العلمية، فهي تضع خطوط فصل بين ما هو علمي وما هو غير علمي. لا يستمر الثوسر على هذا الموقف بل يتحول عنه الى موقف اخر يربط الفلسفة بالممارسة الاجتماعية ويعتبرها تظلا للسياسة في الممارسة النظرية وفي العلم. بهذا المعنى لا تتأكد الفلسفة بالتثبت العلمي بل بالممارسة. لكن هذا الموقف الجديد هو نفسه يبقي على جملة من التساؤلات بدون جواب. ما هي الاختلافات الموجودة بين السياسة والفلسفة؟ اذا كانت السياسة ايدولوجيا تتأكد بالممارسة وكذلك الامر بالنسبة للفلسفة، فما هو الفرق اذن بينهما؟ الا يمكن اعتبار الفلسفة ايدولوجيا؟ ثم ما هو تأثير تسرب الايدولوجيا/السياسة بواسطة الفلسفة على الممارسة العلمية وبالاساس على علم التاريخ او المادية التاريخية؟ هل تحافظ العلوم على موضوعيتها التي تجعل منها مسارا بدون ذات؟ واذا امكن ذلك في العلوم الطبيعية فهل هو ممكن في المادية التاريخية؟

مرة اخرى يصمت الثوسر ولا يجيب عن هذه الاسئلة لكن اهمية موقفه وما يجعله مختلفا عن الموقفين الاولين اللذين يتميزان باطمئنانهما وانتصارهما هو الموقف القلق الحرج الذي يبقي الباب مفتوحا لجملة من التساؤلات حول طبيعة الفكر المادي الجدلي.

الموقف الثالث : فلسفة البراكسيس

لقد مثل ظهور هذا الموقف عملية رفض للموقف الوضعي/العلماني الذي برز في شكل ايدولوجية اقتصادية. تجعل من الاقتصاد محركا مطلقا للتاريخ. فهو يسير حسب ضرورة قوانين اقتصادية صارمة تتجاهل كل تدخل لذوات انسانية فلا تعدو هذه الاخيرة كونها مجرد ارادات تعيش دائما تحدي القوانين الاقتصادية فتجعل من هذه الذوات وتصوراتها

اوهاما مستمرة. ان سيطرة الموقف الاقتصادي سواء كان في تكوينته الروسية الستالينية او الالمانية الكاوتسكية، اعتبر انذاك من طرف غرامشي كمرض رئيسي الم بالمادية الجدلية فتجاوزه يستوجب العودة الى هيجل من جهة والسى الفكر الفلسفي السياسي مع ميكياقلي من جهة اخرى.

ان العودة الى هيجل تمثل مفاجأة بعد ان عرفنا ان نشأة المادية الجدلية قامت على تجاوز للهيكلية، لكن في تلك الظروف حيث سيطر الفكر الاقتصادي سيطرة كاملة، فان هيجل يمثل سلاحا فعليا ضد هذا التصور فالفلسفة الهيكلية قامت على التاكيد على العلاقة المركزية بين الذات والموضوع فنقد الموضوعية المطلقة في صورتها الشلنغية Schelling مثل احد اللحظات الحاسمة في بناء الفلسفة الهيكلية؛ والاقتصادية ما هي الا تقهقر الى الموقع الموضوعي هذا. كما ان العودة الى هيجل بدون التوقف عند ماركس يمثل نقدا ضمنيا للمادية الجدلية في تجلياتها الاقتصادية. فعند ماركس وانجلز توجد بوادر الايديولوجية الاقتصادية هذا ما اراد التعبير عنه غرامشي في قولته المشهورة «البروليتاريا ضد راس المال» والمقصود هنا هو كتاب راس المال.

ان علاقة الانسان مع واقعه الاجتماعي ليست علاقة ذات مع موضوع بل علاقة عملية، فليس هناك واقع خارج نطاق عملية التغيير التي يقوم بها الانسان لذلك فأي وضع اجتماعي لا يتسم بالموضوعية والحتمية الصارمة بل يتميز بسيرورة تاريخية مستمرة فان كانت هناك قوانين فهي تاريخية لان التغيير والتحول يمثلان وجودها. فالتغيير مطلق اما الثبات فهو نسبي. هذا التاكيد الغرامشي هو الذي يعطي لفلسفة البراكسيس طابعها التاريخي

ان العودة الثانية التي تبدو مفاجئة هي العودة الى ميكياقلي. ما علاقة ميكياقلي بالمادية الجدلية؟ لقد كان هدف

غرامشي هو التأكيد على ان السياسة هي المجددة في كل ممارسة اجتماعية فان كانت هناك نظرية فلا يمكن ان تكون الانظرية السياسية. وميكيافلي هو الذي خطا في هذا الاتجاه اشواطا بعيدة. ثم ان ميكيافلي سمح لغرامشي باعادة النظر في مفهوم الحزب ووظيفة المثقف بالمجتمع بهدف تحديد علاقة السياسي والايديولوجي بالمواقع الاجتماعي. فالسياسة والايديولوجيا لا تمثلان الخطأ والوهم بل ان فعاليتها تبرز من حيث انها قوة تغيير فهما قبل كل شيء «براكسيس».

ان عملية المسح التي قمت بها لمختلف المواقف التي عرفتها المادية الجدلية تفرض نفسها على كل من يريد ان يلقي اليوم نظرة نقدية على الفكر الجدلي لان استمراريته ارتبطت بجملة هذه المواقف والتصورات التي مكنت الفكر الجدلي من حركية وحيوية لم يعرفها اي فكر اخر. ثم ان عملية المسح هذه تفرض نفسها على كل محاولة تهدف الى التفكير في الازمة التي يعرفها الفكر الجدلي المادي فهذه المواقف المختلفة توفر الاليات الاساسية والمقدمات الاولى لعملية تجاوز هذه الازمة فعمق هذه الازمة يكمن في انها زعزعت القاعدة النظرية لهذا الفكر، فالازمة لم تمس جانبا من جوانب هذا الفكر بل منست كيانه في كليته.

ان السطور التي سنقرأها لا تطمح ابدا في تجاوز هذه الازمة فهو عمل طويل النفس، لكنها بالرغم من حدودها ستحاول ان تعيد النظر في بناء الفكر الجدلي وذلك بالاعتماد على جملة المواقف التي تعرضت لها. فهذه المواقف تحمل كلها في طياتها اسباب الازمة وامكانيات تحاورها. وسيكون الموقف الاخير «فلسفة البراكسيس» هو موجها الاول والرئيسي في مغامرة البحث هذه.

لذلك سنستعمل هذه المواقف بدون ترتيب زمني تاريخي فهي تمثل اسلحة في ايدينا نستعملها في كل موضع تفرض نفسها

علينا فيه. فسنعود الى فلسفة البراكسيس بواسطة هيغل لنقد العلمانية الوضعية ونستعمل ماركس لابرار حدود هيغل، و سنلتجىء الى الثوسر مع التاكيد على نقائصه، سيبرز ان كل هذه اللحظات التي توقفنا عندها متواجدة في فكر ماركس وانجلز مكونة لوحدة متشابكة مترابطة ومعقدة تقنع بان الفكر المادي الجدلي ليس مجرد علم بل هو اعقد من ذلك بكثير. وكمعينة لهذه المواقف المختلفة ولتشابكها سنضيف عددا من النصوص حول الفكر الجدلي وبالخصوص المادي منه نحاول تبويبها حسب الاشكالية التي طرحناها في هذا التقديم كشاهد عليها من ناحية وكمعودة ضرورية الى النص في حركيته وحيويته.

جدلية الفكر والواقع

حول العلم والايديولوجيا

لقد حددت عملية المعرفة تاريخيا بثنائية مضاعفة تمثلت في زوجين من الاقطاب :

حقيقة — خطأ

جوهر — عرض

فالبحث في الجوهر يمكننا من الوصول الى الحقيقة، وتغيب الحقيقة اذا ما بحثنا في العرض فالبحث في العرض يفرز ضرورة تصورات وافكارا خاطئة. وللتأكد من صحة ما تقدمه يمكن أن نعود الى افلاطون ونتتبع الطريق الذي اخذه مسار المعرفة مرورا بكانت وفورباخ وماركس حتى الثوسر. فسنلاحظ ان الثنائية المذكورة تعمل في كل هذه المحطات الهامة من تاريخ الفكر وبدون شك في كل مرحلة ومحطة تتغير المفاهيم والتصورات وتعطى لهذه الثنائية تسميات مختلفة لكنها في اساسها تبقى فاعلة في النظر الى المعرفة.

فقد اعتبر افلاطون ان الواقع والتجربة لا يفرزان الا معرفة واهمة في صحتها والحقيقة تكمن في تجاوز هذا الواقع للبحث عنها في عالم الجواهر، اما كانت فقد ارتبطت اشكالية

المعرفة عنده بالتفكير في ثنائية العارض والجواهر (الشيء لذاته والشيء في ذاته).

نفس الاشكالية متضمنة في الفكر الفورباخي فالحقيقة تتمثل في الواقع، في الانسان الواقعي اما الخطأ/الوهم فهو في التصور الديني لهذا الواقع الذي يمثل صورة واهمة للانسان الواقعي، ويتواجد عند ماركس وانجلز نفس التصور : الحقيقة تتمثل في معرفة الواقع اما الخطأ فهو في كل فكر يتعالى على الواقع كالثنائية مادية/مثالية، وفي بعض المواضع يكمن الخطأ عند ماركس في الواقع المعاش الذي يبقى في سطوح الحقيقة وتكمن الحقيقة وراء هذا الواقع الظاهر هذه الثنائية هي التي تمحور افكار الثوسر فالخطأ هو افراز للايديولوجيا اما الحقيقة فهي افراز للعلم. فالمعرفة الحقيقية هي نقي لا بمفهومه الهيجلي بل الباشلاردي للايديولوجيا، فالحقيقة في العلم الماركسي لم تبن الا على انقراض الخطأ البورجوازي المتمثل في الاقتصاد السياسي.

لا يخفى علي الاختلاف الموجود بين كل هذه الفلسفات والتصورات وفي بعض الاحيان التناقضات الموجودة بينها لكن الشيء الذي اردت تأكيده هو استمرار فعالية هذه الثنائية في كل هذه الفلسفات بالرغم من الاختلافات الموجودة بينها والعلاقة بين افلاطون وماركس ليست علاقة تواصل بل علاقة «قلب» فما هو حقيقة/جوهر بالنسبة لاول يصبح خطأ بالنسبة للثاني والعكس.

وما هو واقع في مفهوم ماركس يختلف عن الواقع في مفهوم فورباخ فالواقع الماركسي هو بنية معقدة تشمل الاقتصاد والسياسة والايديولوجيا بينما الواقع الفورباخي يتمثل في الانسان المجسم بمفهومه الوجودي ولا تستوعب مقولة الواقع الاثوسرية الا بالعودة بها الى الفكر الباشلاردي فالواقع ليس ما يبرز لنا في تلقائيته بل ما كان علينا ان نفكر فيه فالكلية

الواقعية هي كلية فكرية وليست الواقع المجسم والانتسان
المجسم ولا اريد ان اهمل ما حصل على فكر الثوسر من تغيير
حول الايديولوجيا فمن تصور الايديولوجيا = خطأ = وهم
الى اعطاء الايديولوجيا مفهوما واقعيا يمر عبر اجهزتها التي
تجعل من الفرد في المجتمع فردا «مستدعي» وهي تحولات
هامية ساستعملها في تحليلي هذا لكن الثوسر توقف عند هذا
الحد وبقي التصور الذي يسيطر على مقولة الايديولوجيا
هي الخطأ = الوهم مقابل العلم = الحقيقة.

ان هذه الاختلافات موجودة وليس في نيتي طمسها لكنني
بتركها جانبا اريد ان اؤكد على ناحية هامة متضمنة في كل
هذه الفلسفات وهي الاقرار باشكال وطرق مختلفة بوجود
مجالات من مجالات اللاحقيقة والوهم والخطأ مقابل مجال من
مجالات الحقيقة والواقع.

ان هذه الرؤية حين تنزل من ميدان الفلسفة الى ميدان الممارسة
والسياسة تتسطح وتبتدل وتطبع بطابع مطلق فكل الافكار
المخالفة لافكاري والممارسات المخالفة لممارساتي هي
ايديولوجيا = خطأ = وهم مقابل الحقيقة والواقعية المتسمة
بها افكاري. ويزيد في تدعيم هذا الاعتقاد النجاح النسبي
والجزئي لهذا التصور او ذلك فيطبع تلك الافكار والممارسات
بطابع اليقين والمعتقد.

لا اهدف بقولي هذا الى طمس الاختلاف بين المعرفة
العلمية والايديولوجيا ولا الى تجاهل التمييز الضروري بين
العلم والواقع المماش بل اؤكد اننا حين نطبع هذه الثنائية
بطابع مطلق يصبح التقسيم اعتباطيا ويفقد التمييز بين
مستويات المعرفة فعاليتها وجدواه لذلك لا بد من اعادة النظر
في هذه الثنائية وفي هذا التقسيم بهدف ارجاعها الى حجمها
الحقيقي.

وفي هذا المجال يمثل هيجل والعودة الى فلسفته سنندا نظريا

هاما ولحظة هامة في تجاوز الثنائية المعرفية فقد اكد هيجل ان العقل لا يقف من الواقع موقف القطب الخارجي عليه ولا يمثل الواقع جوهرًا يقف امام العقل، وقد تعرض هذا الموقف الى عدة تفسيرات حاولت ان توجهه في هذه الناحية او تلك انطلق البعض منها من موقف تجريبي يعتبر ان الواقع عقلائي اي انه يمكن فهم الواقع فهما عقليا. الم يؤكد هيجل نفسه ان الفلسفة تأتي متأخرة لتعقل الواقع. ؟ فالواقع حسب هذا التفسير يتضمن معقوليته وما علينا الا تجريدنا بواسطة التفكير. فالفكر التجريبي يعتبر ان الطبيعة كتاب مفتوح وما علينا الا قراءة سطره.

يوجد تفسير ثان للمقول الهيجلي المذكور وهذا المعنى تسمح الفلسفة الهيجلية بظهوره فبمقتضى هذا التفسير يصبح معنى القول : لا وجود لواقع غير العقل فالعقل يتأمل ذاته في الواقع. فالواقع لا يعني الجسم والمحسوس بل العقل وهذا التفسير يشتمل على تصور عقلائي مثالي للمقول الهيجلي يعود به الى موقف فختوي Fichte ونعلم مدى تاثر هيجل بفلسفة فختة.

ان قول هيجل «كل ما هو واقعي عقلائي وكل ما هو عقلائي واقعي» يتحمل معنى اخر يختلف عن المعنيين السابقين بدون ان ينفيهما. فالمقول الهيجلي المذكور اذا ما نظرنا اليه في عموميته لا يمكن تفنيده، فهو يؤكد على انه ليس هناك مجال من مجالات الواقع لا عقلائي اي خاطيء. بل ان الخطأ يبرز حين ننظر الى الحدث في عزله. لكننا اذا وضعناه في الكل فهو يأخذ مكانه وبالتالي عقلائيته. لكن البقاء في هذا المستوى لا يكفي فالكل الهيجلي هو المطلق والمطلق هو العقل، فكل حدث صحيح لانه يمثل في خصوصيته واحاديته تجل للمطلق. لكن هنا بالضبط يسقط هيجل لان المطلق بهذا المعنى لا يتمثل في ما يمارسه الانسان بقدر ما هو العقل الذي يكون دائما وابدا حاضرا ينتظر وعي للانسان له ليتحقق الخلاص بالامتزاج به.

انني سوف لا اتبع القول الهيجلي في استنتاجاته الاخيرة وركز فحسب على ما يشتمل عليه تصويره من تجاوز للثنائية [عرض، جوهر، خطأ، حقيقة] فمعرفة العرض هي لحظة ضرورية في مسار المعرفة. وليس هناك جوهر وعرض بالمعنى الثنائي بل وجود تاريخي مفتوح بكل امكاناته يسمح بافراز عدد من الاقوال الحقيقية التي تتحدث عنه بطريقة يسمح لها بها ويجعل من البعض منها ممكنا والبعض الاخر غير ممكن. لكن في حدود الاقوال الممكنة ليس هناك ما هو اكثر او اقل صحة من الاخر. ونجاح او فشل قول ما في الممارسة لا يعطيه شرعية الاطلاق لاننا اولاً وفي نفس الوقت نجد عدداً من الاقوال التي تنجح في الممارسة، ثم حتى اذا ما وجد قول يحتوي على امكانات في النجاح اكثر من الاقوال الاخرى فان نجاحه يستوجب رغم ذلك قدرة على تحويل هذا الامكان الى نجاح فعلي. لكن يجب ان يبقى حاضراً في اذهاننا انه امكان من جملة امكانات اخرى فالخطاب الديني مثلاً ليس وهماً ومقولاته الاساسية الله، الخلق الاخرة... الخ ليست وهماً فهي تقول الواقع حسب الامكان الذي يسمح به هذا الواقع بصورة اخرى فان القول العلمي نتيجة لشروط الامكان المتوفرة في فترة ظهور الدين هو قول غير ممكن ولو افترضنا وجوده لما كانت له الفعالية التي يملكها اليوم. ان تأكيدنا على ان الدين مثل في فترة معينة القول الممكن لا يعني ان ينفي امكان اقوال اخرى مختلفة وحتى مضادة له في بعض الاحيان، ثم انه يشق من داخله بجملة من الاقوال المختلفة.

ان نجاح القول الديني يتجسد في ممارسته وهذا النجاح يعود الى توفر شروط امكانه اكثر من شروط امكان اي قول اخر الا ان تجسده في الممارسة يبقى مع ذلك مرتبطاً بذوات عملت طويلاً من اجل تحويله من الامكان الاكثر الى التجسد الفعلي. ان القول الديني اذن لم يبق مطلقاً في مستوى الفكر ومقولاته الاساسية المذكورة تجسدت وسمحت بجملة من الممارسات

والوقائع. الصلاة. الصوم والجوامع والصراعات الدينية الكلامية والحروب، ولا يكفي أن نقول أن ذلك طبيعي لأن مقولة الله مثلا ليست الا الطبيعة المجردة للانسان موسى او عيسى او محمد فجملة الممارسات التي مكنت منها هذه المقولة لم تبق في حدود الفرد أو الافراد المؤسسين لها بل تجاوزتهم وفتحت امكانيات لم يكونوا ليحلموا او يتنبؤوا بها فهي لم تعكس جوهر الانسان في مفهومه الفوريباخي لانها تجسدت تاريخيا في جملة من الممارسات الفعلية. فهي لم تمثل وهما بل كانت اكثر حقيقة من اي حقيقة اخرى.

لذلك ففي هذا المستوى لا معنى للتمييز بين الحقيقة والوهم أو الخطأ لأن القول بأن الدين يمثل الوهم أو الخطأ مقابل الحقيقة التي يمثلها العلم يجرنا الى وضع القول العلمي في مقام مركزي نقارن به كل الاقوال الاخرى. فنسقط في موقف وضعي علماني يمسح التاريخ ويجعل من العلم مطلقا ومقياسا وهي نظرة لا معنى لها لانه كما اكد على ذلك ماركس «لاتطرح الانسانية على نفسها الا المشاكل التي تستطيع حلها» فظهور العلم لم يكن ممكنا في الشروط التي ظهر فيها الدين، فالدين اذن يمثل حقيقة تلك الشروط كما ان العلم يمثل حقيقة شروط اخرى. وقد عاش الناس ولقرون طويلة واقعهم من خلال الدين وعاشوه على انه حقيقة.

نفس الشيء يمكن أن نقوله حول ما سمي «بالعرض أو التجربة المعاشة» فلا معنى لمقارنة نقوم بها بين التجربة العلمية والتجربة المعاشة لاننا حتما سناخذ من الاولى مقياسا مطلقا نحكم به على الثانية بالخطأ والوهم لكن الحقيقة غير هذه اذ ان التجربة المعاشة ليست اقل صحة من التجربة العلمية بما انها قد حددت منذ قرون ممارسات الناس ولا تزال الى يومنا هذا محور حياتنا اليومية. في هذا الاتجاه نفهم قوله هيجل من أن العرض هو جزء من المطلق وأن نفيه لا يعني عدمه أو خطاه. بهذا المعنى يصبح العلم قولاً من جملة اقوال

ممكنة تاريخيا ولا يظهر الا بتوفر شروط امكانه فهو لا يمثل حقيقة مطلقة بل يمثل حقيقة شروط كما مثل الدين حقيقة شروطه.

اذا كان ما قدمناه صحيحا فانني اقترح تعويض الثنائية، علم = حقيقة وايدولوجيا = خطأ = وهم بمقولة شروط الامكان وتتحدد هذه الشروط بالتكوينة الطبقيّة لمرحلة تاريخية معينة. هذه التكوينة تتألف من العلاقات الطبقيّة، لكن لا توجد هذه الطبقات بصفة مجردة بل وجودها يبرز دائما في حالة صراع وتناقض مستمرين هذا الصراع والتناقض يتم دائما في اطار تاريخي وهذا الاطار هو ذاته محدد بطبيعة الصراع الطبقي فليس هناك قوانين متعالية وخارجة عن هذا الصراع كما انه لا توجد قوانين اقتصادية خارج الصراع الطبقي.

ان الصراع الطبقي الذي يتم في مرحلة تاريخية هو صراع كلي وشامل اقتصادي وسياسي وايدولوجي. وحين اميز بين المستوى الاقتصادي والسياسي والايدولوجي فان ذلك يبقى نظريا في اخر التحليل لان هذه المستويات الثلاثة متشابكة فما هو اقتصادي يفرز ما هو سياسي وايدولوجي وان للايدولوجي والسياسي فعالية اقتصادية فمثلا لا يمكن ان نفهم الاجر في مجتمع معين بالاعتماد على الاقتصادي فهناك عناصر سياسية وايدولوجية (الدولة، التقاليد... الخ) تلعب دورا في تحديد الاجر. كما اننا لا نفهم تكون الملكية خارج اطار العنف والدولة فالسياسي ليس عنصرا مقابلا للاقتصادي بل عامل من عوامل تكونه واذا تحدثنا عن عنصر اقتصادي باعتباره محددًا فان ثقله هذا يرتبط بعلاقته المباشرة بتلبية حاجيات الناس ورغائبهم لكن لا يجب ان نعطي للمحاجيات والرغبات وجودا مستقلا عن التاريخ وعن الصراع الطبقي فهي دائما وابدا مطبوعة بطابع تاريخي ولا تعني ما يسميه الاقتصاديون بالطبيعة الانسانية فليس هناك طبيعة انسانية

ثابتة بل تكوينية تاريخية لانسان تاريخي.

لا ترتبط العلاقات الاقتصادية بحاجيات الانسان برباط شفاف بل تمر عبر نسيج ايديولوجي يعطيها شرعيتها ويساعدها على الاستمرار. هذا النسيج يتكون من جملة التصورات والممارسات المتجسدة في اجهزة ايديولوجية تملك طبيعة هيمنية بالمعنى الواسع للكلمة تتخلل الكل الاجتماعي وتمر عبر ثنائية القبول/الضغط. وتؤكد قوة النسيج الايديولوجي بمدى قبول الكل الاجتماعي لهيمنته وكما دخل النسيج في ازمة هيمنية احتاج الى تقوية القطب الاخر وهو الضغط. لكن اجهزة الضغط ليست قمعا مطلقا بل ترتبط كذلك بجملة من الوظائف الاخرى كالاقتصاد والامن والمعرفة، كما تجد شرعيتها في هيكلية الكل الاجتماعي تتخلله عبر هذه الهيكلية (عائلة، تعليم... الخ) ان الهيمنية الايديولوجية ليست ابدا مطلقة ولا متجانسة اذ توجد دائما عناصر وعوامل تشق تجانسها. عناصر وعوامل مقاومة تعتبر جزءا لا يتجزأ من الظرف تعمل من داخله وتفكك تجانسه تدريجيا.

فهي لا ترتبط بالكل الاجتماعي التاريخي من الخارج بل من داخله وهي دائما حاضرة، فيه بالرغم من محاولات نفيها وتحطيمها عن طريق الهيمنية.

حين نحدد ظرفا معيننا فانه لا يمكننا تجاهل العنصر الطبيعي فله فعاليته الخاصة في الظرف ويتمثل في كل العوامل الخارجة عن نطاق ما ينتجه الانسان. وكثيرا ما تجاهل الماركسيون هذا العنصر، هذا التجاهل ارتبط بتصوير ظهر منذ النهضة يعتبر ان الانسان هو سيد الطبيعة ومخضعها لارادته المطلقة، لكن بالاضافة الى ان هذا التصور لا يصدق على المجتمعات البدائية ويرتبط بنظرة حضارية تكنولوجية، انتاجية، فان الانسان بدأ يشعر بخطورة هذا التصور على التوازن الطبيعي الضروري لاستمرار الانسان نفسه هذا الوعي التدريجي يمثل

تذكيرا بضرورة اعطاء الطبيعة حجمها الحقيقي والفعل في كل تصور وممارسة لان الطبيعة تملك وسائل انتقامها من تجاهل الانسان لها.

وبالرغم من ان العناصر الطبيعية سابقة للانسان وخارجة عنه الا انها تأخذ طابعا تاريخيا ففعاليتها ترتبط بالظرف التاريخي والصراع الطبقي وبالتالي بالإمكانات المتوفرة للانسان.

ان هذا الظرف المركب والمعقد هو الذي يمثل شرط امكان القول فلا يمكن لاي قول سواء كان علميا او ايدولوجيا ان يفلت منه ويتأسس خارجا عنه فهو الذي يعطيه نوعيته وحدوده وهو الذي يولد امكانيات تجاوزه بالاعتماد على عناصر المقاومة الموجودة في الظرف. بهذا المعنى فان كل قول يظهر بصدقه لانه يعبر بطريقة خاصة وحسب ما يمكنه منه الظرف عن هذا الظرف فليس هناك قول يوجد خارجه حتى وان اكد على خروجه فتأكيده هذا لا يتم الا لان الظرف يسمح به. فالايديولوجيا البورجوازية ليست صنعة كذب فهي لا تخادع بل تقول الحق، ومقولة «المصلحة العامة» هي تعبير البورجوازية عن وعيها بالتناقضات التي تشق المجتمع فهذه المقولة هي جزء من الهيمنة الضرورية لكل ظرف تاريخي معين. اكثر من ذلك فهي لا تخادع لانها في الوقت الذي تخدم فيه البورجوازية نفسها اقتصاديا وسياسيا فهي تقوم بذلك عبر توفير حد ادنى ضروري للطبقات المهيمن عليها. فجهاز الدولة مثلا يحافظ على مصلحة الفئات المهيمنة لكن ذلك لا يتم الا بالحفاظ على حدود دنيا من مصالح الفئات المهيمن عليها. فاصرار الطبقات المهيمنة على الوحدة والمصلحة العامة هو بوح بالتناقضات التي تشق الظرف وتعبير عن ضرورة تجانسها عبر توفير وسائل هذا التجانس.

والا لا نفهم ابدا كيف تستمر السلط السياسية وكيف تستمر

هيمنة الطبقات. لا يستطيع القمع وحده تفسير ذلك. فهناك عطالة اجتماعية متأتية من قيام الطبقات المهيمنة بتوفير حدود دنيا مما يحتاجه الكل الاجتماعي. هل نستنتج مما تقدم انعدام الفارق بين العلم والايديولوجيا وذوبان الاختلاف بينهما في مقولة شروط امكان القول وصدق كل قول يظهر لان في ظهوره نفسه يكمن صدقه؟ بالفعل اذا انطلقنا من التمييز بين العلم = حقيقة والايديولوجيا = خطأ فان ما قلناه هو نفي لهذه الثنائية فالايديولوجيا ليست اقل صدقا من العلم، لكن هذا القول لا يمسح الاختلاف بينهما.

هذا الاختلاف لا يرتبط بالصدق والخطأ بل بنشأة كل منهما وباجرائيتهما وفعاليتهما.

– فالقول الايديولوجي هو قول تلقائي وهو يهيمن على نسيج المجتمع كله فيتخلل كل تكوينته.

– ان نشأة القول الايديولوجي ترتبط بعناصر المقاومة التي توجد في الظرف.

– بهذا المعنى فان زمنية القول الايديولوجي هي زمنية الظرف الذي تولد عنه.

– لذلك فان اي قول اخر لا ينشأ الا على قاعدة وارضوية الايديولوجيا بما في ذلك القول العلمي.
اما في ما يخص القول العلمي :

فيمكن في هذا الاتجاه ان نميز بين نوعين من الاقوال :

– قول ايديولوجي نظري يتمثل في الفلسفة، والقانون وحتى العلوم الانسانية، هذا القول عادة ما يحاول تجاوز تلقائية الايديولوجيا وينشأ للدفاع عن طبقة او فئة معينة.

– قول علمي يتميز بانشائيته وتكوينيته واليات تثبيته المنطقية والتجريبية..

القول العلمي

التمييز بين القول العلمي في مجال الطبيعة وفي مجال المجتمع.

ليس من الصدفة في شيء ان يرتبط اول افتتاح للتفكير الفلسفي بمسألة الثبات والتغير فقد اكد افلاطون بأن «القول الحق» مستحيل مع التغير، فالثبات وحده مولد للحقيقة ولم يتغير طرح القضية كثيرا منذ افلاطون فقد بقيت مسألة زمنية الحدث احدى المسائل الرئيسية في كل فكر يهدف الى مسك الواقع مسكا علميا. فقد ارتبط علم نيوتن بتصور لزمان الحدث هذا الزمان المطلق والثابت، الديمومة التي تتعاقب فيها الاحداث بدون ان تغير جوهرها. الم تكن اطلاقية الزمان النيوتني منطلقا لمقولة الزمان الكانتي كمقولة مسبقة للحساسية؟ ثم الم ينشأ العلم الانشائي بعلاقة مع تغير مفهوم زمنية الحدث؟ الم ترتبط الفيزياء الكوانتية والذرية بتغير لمفهوم زمنية الحدث الميكروفيزيائي؟ ونعلم ان تغير مفهوم الزمن عند انشائين والميكروفيزياء قد فتح أزمة العلم الكلاسيكي كله. نفس الشيء يمكن ان نقوله حول نظرية التطور فالتأكيد الدارويني على تاريخية الحدث الحي تكمن في قلب هذه النظرية. وان عجزت النظرية القديمة على مسكه فلانها رات الثبات حيث كان يجب ان ترى التغير.

اذن لم تتغير المسألة كثيرا منذ افلاطون فمسألة التغير والثبات بقيت احدى ركائز كل محاولة معرفية في ميدان الفلسفة او العلم. لذلك فتمييزنا بين المعارف سيتم انطلاقا من قضية زمنية الحدث. وفي هذا الاتجاه يمكن ان نحدد ثلاثة اصناف من الزمان الحديثي :

- الزمان الفيزيائي
 - الزمان البيولوجي
 - الزمان التاريخي والانساني.
- الزمان الطبيعي {

تتميز الظاهرة الطبيعية بأسبقيتها وبخارجيتها الانطولوجية وبنباتها، لنتفق. لا أقصد ان الظاهرة الفيزيائية لا تتغير فنذ «كانت» لم تعد قضية زمنية وتغير الظاهرة الطبيعية موضع شك. لكن تغييرها بطيء الى درجة ان مسكها المفهومي ممكن، وهي في تغييرها البطيء تكون دائما حاضرة ومفتوحة للمعرفة. فهي توفر شرط المعرفة في صورتها الافلاطونية، وان وجد مشكل يعترض المعرفة في المجال الفيزيائي فلا يرتبط بالحدث، فهذا الاخير قابل دائما الى ان يعرف فالمشكل اذن يكمن في اختلاف زمنية المفاهيم والمقولات التي نتجها بها الى مسك الظاهرة من جهة وزمنية الظاهرة نفسها من جهة اخرى، فكل منهما يرجع الى زمن خاص فبينما يتولد المفهوم والمقولة من خلال اطار تاريخي يعطيها امكاناتهما وحدودهما بما في ذلك الوسائل والادوات اذا اعتبرناها نظريات مجسمة تستوجب عملية بنائية متواصلة. نرى ان الظاهرة الطبيعية (الفيزيائية) تستمر في ثباتها او تغييرها البطيء حاضرة دائما تنتظر مسكها المعرفي. فالمعرفة العلمية في المجال الفيزيائي لا تأخذ نسبيتها من الظاهرة بل من المقولة والمفهوم. فهما مرتبطان بشروط الامكان التاريخية ويقتربان دائما من معرفة الظاهرة. لكن هذا الاقتراب يستوجب دائما التصحيح والتعديل والهدم والبناء والتراجع والتطور ولا يستطيع ابدا ان ينطبق على الظاهرة. وهو ما نفهمه من قوله باشلار بان المعرفة العلمية هي دائما تقريبية. ان هذا التصور لعملية المعرفة يختلف عن الموقف الانطولوجي المادي الجدلي فهذا الاخير يبقى عاجزا عن فهم واقع عملية المعرفة اذا ابقى على اعتباره ان قوانين الجدلية هي انعكاس مطلق للظاهرة. فهو بذلك يقفز على تعقيدات عملية المعرفة ذاتها التي لا تتمثل في مستوى الانعكاس فقط بل تستوجب عملية تركيب مستمرة ودائمة وما يعتقد. مفهوم او مقولة طبيعية وموضوعية يمثل في حقيقة الامر مفهوما ومقولة مرتبطتين بشروط امكانهما التاريخية. واعتقد ان الموقف المثالي يجد هنا تبريره حين يقول اننا

لا نعرف الا افكارنا ولا نعرف الاشياء ذاتها والموقف الربيبي الذي يرى استحالة المعرفة لكن المثالية تخطىء في طبع هذا الجانب بالاطلاقية فهي لا تفعل سوى قلب الموقف الانطولوجي «قوانين العقل هي قوانين الوجود»، لذلك فاذا ما توقفنا في تصورنا لمعرفة الظاهرة الفيزيائية عند حدود ان معارفنا تعكس الظاهرة كما هي نكون مخطئين لان ما نكونه ليس مفهوما يعكس وجود الظاهرة بل مفهوما يرتبط بحدود تاريخيتنا. لكن في عملية التركيب والتعديل المستمرة لمفاهيمنا ومقولاتنا نستطيع تجاوز هذا التصور الأول ونقترب اكثر من مسكنا للظاهرة فالمعرفة هي دائما انعكاس تقريبي مستمر، فموقعنا المعرفي ليس موقع الشك الذي ينفي امكان المعرفة ولا موقع المتأمل لذاته في معرفته للوجود ولا موقع الساكن في اطلاقية معرفته بل موقع الذي يعرف لكنه يعرف دائما تاريخيا فمعرفته ترتبط دائما وابدا بحدودها التاريخية. فعلاقتنا المعرفية بالواقع الطبيعي (الفيزيائي) ليست علاقة شفافة بل تمر عبر جملة من الواسطات من لغة، وعلاقات اجتماعية وايدولوجية تطبع مقولاتنا بطابع تاريخي وانشائي. فليس هناك مقولات قبلية خارجة عن التاريخ وقادرة على معرفة عكس الواقع لان المقولة والمفهوم يبنيان وينشان في مجال تاريخي معين.

فان وجدت حقيقة فلا يمكن ان تكون معطى اولا بل هي نتيجة مسار تاريخي ولعل هذا ما قصده هيجل حين اكد ان الحقيقة هي سيرورة للفكرة والممارسة، فهي بناء متواصل لحقائق تاريخية وعملية المعرفة ليست خارجة عن نطاق النسيج الاجتماعي فلا تستطيع تجاوزه بل تضطر الى التعامل معه وتفكيكه في كل مرة. فان وجدت ذاب عارفة فهي بعيدة كل البعد عن الذات الديكارتية التي تنكشف لنفسها في صفاء كامل، فالذات الديكارتية مستحيلة لان الانسان هو دائما وابدا كائن اجتماعي ويستمر كيانه الاجتماعي حتى في الوقت الذي يعلن فيه انه ذات فردية وقوله بفردية الذات لا يفهم ولا يفسر

الا من خلال كونه ذاتا اجتماعية. ان نفينا لذات فردية لا يمكن ان يؤدي الى عملية نفي لكل ذات كما يفعل الموقف البنيوي. فكل ممارسة مهما كانت حتى لو كانت علمية تستوجب ذاتا لكن هذه الذات ليست ابدا فردية ولا شفافة بل حصيلة معقدة لوضع تاريخي معين تمر عبر واسطات عديدة تنعكس فيها حصيلة من المعطيات الاجتماعية والايديولوجية وتضطر المعرفة العلمية الى اخذ موقف المفكك لها فملحاحية هذه المعطيات الاجتماعية والايديولوجية هي نتيجة لفعاليتها واجرائيتها فهي ليست وهما.

ان ما ذكرناه من تعقد عملية المعرفة العلمية في مجال الظاهرة الطبيعية (الفيزيائية) نعترضه في المسار البنائي للمعرفة العلمية في مجال الحدث الاجتماعي التاريخي، لكن عملية التعقيد في هذا المجال تتضاعف لان زمنية الحدث الاجتماعي اسرع من زمنية الظاهرة الطبيعية والسبب يعود الى كون الحدث الاجتماعي لا يوجد خارج ممارستنا فالاطروحة المادية المتمثلة في خارجية الظاهرة تصبح دون فعالية في المجال الاجتماعي لاننا نحن الذين نصنع الواقع فهو مطبوع بكل تصوراتنا وحدودنا لذلك فالحديث عن الظاهرة الاجتماعية بالمفهوم الوضعي لا معنى له. فاي مجتمع نعني؟ وباعتبار اي مرحلة تاريخية؟ ففي اخر التحليل لا نرى من الشرعي التساؤل عن وجود ظاهرة نسميها مجتمعا، او نمط انتاج في كونيتهما. كما حاول رسمها بالبار 'Balibar' مثلا. فهل يمكن الحديث عن قانون اجتماعي علما بأن الحدث الذي نضع له القانون هو ذاته مرتبط بممارستنا؛ لذلك ليس هناك امعن في الخطأ من الفكر الوضعي التجريبي الذي يلبس كل ممارسة قالبيا علميا فتتعدد العلوم وتتفرع الى علم اجتماع وعلم نفس وعلم سياسة وعلم اخلاق وعلم قانون الخ... ويجد مؤسسوها ومدرسوها في الاجهزة الجامعية سعادة كبرى في مقارنتها بعلوم الطبيعة فيحددون موضوعها ومفاهيمها ولا يدور بخلد

هؤلاء ان تحديد الموضوع والمفهوم لا معنى له ابستمولوجيا في هذه المجالات لسبب بسيط هو ان ليس هناك مجتمع خارج الممارسة الاجتماعية وليس هناك قانون خارج العلاقات الاجتماعية الايديولوجية، فما معنى الحديث عن قوانين تملئ بها صفحات كتب القانون في الوقت الذي نعلم أنها مرتبطة باستمرار ممارسة اجتماعية في اطار تاريخي معين وبجهاز دولة يعطي لهذه الاستمرارية امكاناتها او ينفياها.

فالموقف الوضعي التجريبي يعيش في وهم التمييز بين الذات الفردية الفاعلة والظاهرة الاجتماعية بالرغم من انه لا معنى لوجود ذات فردية فاعلة وعارفة وحتى وان وجدت فانها خلق اجتماعي. فلا وجود الا لذوات اجتماعية كالطبقات والمجموعات والتراث الخ... التي ترتبط بعلاقات اجتماعية في فترة تاريخية معينة. فالموقف الوضعي التجريبي ينطلق من واقعة اجتماعية مرتبطة بممارسة اجتماعية في اطار علاقات اجتماعية باعتبار فترة تاريخية معينة فيتعالى بها محولا اياها الى مطلق لا تاريخي كالقول بالمجتمع او بنمط الانتاج او بالقانون. فمثلا بالاضافة الى ان القانون لا وجود له في مجتمعات معينة مثلا البدائية فان ما نسميه حديثا قانونيا يختلف اختلافا جوهريا من مجتمع لآخر فلا معنى للحديث عن القانون بشكل عام فهو خلق اجتماعي اوجدته ذوات اجتماعية لمعالجة قضايا اجتماعية تختلف اختلافا كبيرا من مجتمع لآخر.

اذا كان ما ذكرناه صحيحا فهل، يعني هذا اننا نوجد بالنسبة الى معرفة المجال الاجتماعي في وضع ميؤوس منه تلفنا دوامة الزمن والتغير بدون ان نقدر على مسك واقعنا الاجتماعي مسكا علميا؟ انني استطيع ان اجيب بنعم فالموقف الهرقليدي في هذا المجال هو موقف صحيح لكن مع بعض الاحترازاات والتوضيحات:

اولا : كون الاقوال التي ذكرناها والمتفق على تسميتها بالعلوم

الانسانية والمعيارية ليست علوما بالمعنى الذي نعطيه لعلوم الطبيعة فان ذلك لا يجعل منها وهما او خطأ لان كل قول مرتبط بممارسة اجتماعية يفصح عنها او بتعبير اخر انه نتيجة لطلب اجتماعي. فالقانون ليس خطأ ولا وهما فهو ملفوف بالممارسة الاجتماعية من كل جوانبه، اكثر من ذلك فان هذا القول يخلق هو ذاته واقعا اجتماعيا يتمثل في جملة من الممارسات، والتصورات والصراعات والطقوس، والاجهزة الخ... وبهذا المعنى فليس هناك فن واقعي وفن لا واقعي فكل تعبير فني هو واقعي بمعنى انه بالاضافة الى كونه يعبر عن واقع فهو في ذات الوقت يخلق واقعا او عالما حسب التعبير الهيدجري ليس اقل واقعية من اي واقع اخر.

لذلك فالمشكل لا يكمن في واقعية القول في المجال الاجتماعي او في عدمه بل في محاولة القول العلمي في المجال الاجتماعي رفع الحدث او الواقعة الاجتماعية من نطاق ممارستها وزمنيتها التاريخية وتحويلها الى مطلق. وهنا يتبادر الى ذهننا السؤال التالي. لماذا هذا الاتجاه في رفع الاجتماعي والتاريخي وتحويله الى مطلق؟ ان الجواب النيتشوي يمكننا من توضيح هذه المسألة. ان هذا الميل مرتبط بالحياة والممارسة. اي انه ضرورة من ضرورات الممارسة والحياة فهو من صنف تلك الاخطاء النافعة للنوع كما يقول نيتشة Nietzsche فحياة الانسان تتطلب منه تجميد الحدث سواء في قالب ديني (حدث ابدى) او في قالب مثالي (سرمدية الافكار) او في قالب علمي استمرارية الواقعة او الحدث في مفهومه فهو وهم للفرار من التغير المستمر بالمعنى الهرقليدي. لكن الوهم هنا ليس العدم بل وهم باعتبار حركية الواقع الاجتماعي وتغييره.

ثانيا : ان زمنية الحدث الاجتماعي تختلف من حدث لآخر واستمراريتهما تختلف من حدث لآخر فكل حدث يستوجب تزمينا مختلفا عن الحدث الاخر. فالمعاملات اليومية كخروجي الى

السوق واشتراء بعض الحاجيات تنتمي الى زمنية من الصعب مسكها عقليا لكن اذا ما وضعناها في نطاق زمنية اخرى مثلا التبادل البضائمي في نطاق السوق فان زمنيها تصبح قابلة اكثر للمسك واذا ما وضعنا عملية التبادل في نطاق عملية الانتاج الاجتماعي فاننا نضعها في زمنية اكثر استقرارا يمكننا من مسكها بصفة اكثر وضوحا وهكذا... وهو ما يعبر عنه المؤرخون بـ «المراحل الكبرى». لكن كل هذه المستويات الزمنية يلفها التغيير فهي زمنية باعتبار وضع معين كما ان مسكها المفهومي ملفوف بالتغيير.

ثالثا : بهذا المعنى يمكن ان نتحدث عن معرفة في المجال الاجتماعي لكن دائما مع التاكيد على ان الحدث الاجتماعي ليس خارجا عن انتاجه وممارسته من طرف ذات اجتماعية من جهة وباعتبار ان المتولة او المفهوم خاضعان الى هذا الانتاج والممارسة من جهة اخرى، فمسك الحدث الاجتماعي معرفيا ممكن بشرط ان نفرق بين المستويات المختلفة لزمنيات الحدث الاجتماعي ومهما استمر هذا الزمن فلا يؤدي ايدا الى تحويل الحدث الى مطلق. قد يقول البعض انك تؤكد بديهيات لا فائدة من تاكيدها، ان المواقف التي تظهر في مستوى العلوم الاجتماعية او المعيارية لاتعكس ذلك وكذلك الامر مع الموقف الجدلي سواء مع هيغل او في الفكر الماركسي فان التعامل العلمي والفلسفي مع الحدث الاجتماعي في هذه المجالات عادة ما يحوله الى مطلق مثلا فلسفة هيغل تعتبر نفسها العقل وقد تجسد. والموقف الماركسي الدغمائي يعتبر بأن مقولات الديالكتيك مطلقة، القانون يدرس على انه مطلق، وعادة ما يقع اللجوء الى علوم الطبيعة (فيزياء الخ...) لتأكيد القول العلمي في المجال الاجتماعي. وهكذا يقع الخلط بين استمرارية زمن حدث معين كاعادة انتاج تشكيلة اجتماعية، او ممارسة قانونية معينة ويبين جعله واقعا مطلقا فنتحول وظيفة المفهوم او المقولة التي تتجه الى تجميد الحدث لمسكه

عقليا الى واقعة مطلقة، قد يكون ذلك ضروريا للحياة والممارسة كما راينا لكن لايجب ان نغطي ذلك بالعلم.

وهكذا وانطلاقا مما تقدم حول المعرفة العلمية لمجال الطبيعة والمعرفة العلمية للحدث الاجتماعي نستخلص :

(1) ان المعرفة العلمية لمجال الطبيعة (فيزياء، كيمياء الخ) ممكنة وذلك نتيجة لخارجية الحدث واستمراريته، والاستمرارية لا نعني بها الثبات بل التغيير البطيء وان تعرضت هذه المعرفة لمشاكل فانها لا تنبغ من الظاهرة التي تبقى دائما مفتوحة للمعرفة بل تنتج من انتماء مفاهيمنا ووسائل معارفنا الى مجال التاريخ فهي تحتاج الى عملية بنائية مستمرة ومتواصلة فانعكاس الحدث او الظاهرة في مقولاتنا ومفاهيمنا ليس انعكاسا شفافا ولا مطلقا بل تدريجيا يمر عبر عملية تصحيح وتعديل مستمرين لان الذات العلمية هي ذات اجتماعية لذلك فهي تطبع بالطابع التاريخي لهذا المجتمع.

(2) اذا سلمنا بإمكان المعرفة العلمية للمجال الطبيعي، فلا يعني ان كل تصور اخر لهذا المجال يسقط في العدم فما نسميه بالتجربة اليومية او الحياتية او المعاشية ليست وهما خالصا او خطأ بل انها حقيقة بما انها تمكننا من الممارسة والحياة.

(3) ان ما كتبناه حول امكان المعرفة العلمية لمجال الطبيعة لا يصدق الاجزئيا على مجال المجتمع والتاريخ. فبالاضافة الى ان المعرفة للمجال الاجتماعي التاريخي تحتاج الى عملية بنائية مستمرة ومتواصلة لمقولاتها ومفاهيمها فان ما يزيد اللوضوح تعقيدا هو ان الواقعة الاجتماعية التاريخية ليست خارجة عن الذوات التي تمارسها. فاطروحة خارجية واستقلالية الواقع لا معنى لها في هذا الاطار. فهي تعبر عن موقف وضعي تجريبي مبتذل. في اخر التحليل يمكننا ان نوكد انه لا توجد علوم للحدث الاجتماعي التاريخي ولا معنى لعلم

للاخلاق ولا للقانون، ولا للدين فلكل حدث واقعيته وزمانيته. لذلك فموضوع ان نلبس القول في المجال الاجتماعي التاريخي اللباس العلمي (الذي قد نحتاج اليه للحياة والممارسة لكن في هذا الشأن المسألة لا تهم العلم فقط كما سنرى) علينا ان نتحدث عن مستويات «تعقل» الواقع الاجتماعي التاريخي مع اعتبار ان مستوى «التعقل» مرتبط دائما بشروط الامكان التاريخية فهي التي تعطي للقول قدرة اجرائية وفعالية اي تعمله حقيقته لكن هذا القول يصبح في عداد الاموات او المرضى اذا ما فقد شروط امكانه.

بهذا المعنى تتساوى كل الاقوال التي تهتم بالمجال الاجتماعي التاريخي كالدين والعلم والفن والسياسة والفلسفة بما انها اقوال تعبر عن ظرف معين لكن مساواتها هذه لا تنفي اختلافها في مستوى اجرائيتها وفعاليتها. فاهم قول في المجال الاجتماعي التاريخي ليس القول العلمي بل القول الايديولوجي كما سنرى بشرط ان نرتفع عن التصور الكلاسيكي للايديولوجيا الذي يراها تساوي السيء والخطأ والوهم.

ان هذا التعرّيج الذي قمنا به للمشكل الاستمولوجي المتعلق بشروط امكان القول العلمي في المجال الطبيعي والاجتماعي التاريخي يفرض نفسه للدخول في تحليل ما اتفق على تسميته في التراث الماركسي منذ انجلز بقوانين الجدلية.

حول قوانين الجدلية

في كتابه «جدلية الطبيعة» يتحدث إنجلز عن قوانين الجدلية التي يحددها في ثلاث قوانين :

- قانون تحول الكم الى الكيف
- قانون تداخل المتضادات
- قانون نفي النفي.

ويضيف إنجلز ناقدًا هيجل «خطأ [هيجل] يتمثل في كونه فرض هذه القوانين من فوق على الطبيعة والتاريخ باعتبارها قوانين الفكر عوض أن تكون مستنبطة من الطبيعة والتاريخ» كما يؤكد إنجلز أن قوانين الجدل ليست شيئًا آخر سوى «القوانين العامة للطبيعة والتاريخ» وللفكر ذاته.

إن التراث الماركسي قد أخذ هذا الفصل من جدلية الطبيعة كبداهيات وأخذ يستشهد بها أو يثبت بها كل تصوراتها حول الجدلية في الطبيعة والتاريخ فيكررها لنين وستالين الخ.. ولم يخطر ببال الماركسيين باستثناء البعض أن يتساءل عن معنى هذه البداهيات مما ترك المجال لغير الماركسيين مثلًا سارتر لطرح جملة من الاسئلة على الفكر الجدلي المادي

لا يمكن تجاهلها. فما معنى ان قوانين الجدلية تستنبط من الوجود؟ وما معنى قوانين الوجود؟ اذا كانت قوانين الجدلية هي قوانين فمعنى هذا ان الجدلية المادية هي علم فما هو المعنى الذي اعطي لكلمة علم هنا؟

لو تتبعنا انجلز في «جدلية الطبيعة» لرأينا انه يقصد بالعلم انعكاس تناقض الوجود (الطبيعة والتاريخ) في الفكر وهو عكس ما يراه هيغل الذي يؤكد ان تناقض الوجود هو انعكاس لتناقض العقل. ان عملية القلب هذه يلخصها انجلز في تعبيره ان قوانين الجدل تستنبط من الوجود وهنا تكمن قمة الخلط عنده فالاستنباط كما يؤكد سارتر على ذلك هو عملية منطقية تأخذ معناها في مستوى البناء المنطقي لنظرية علمية لكن ان نستنبط قانونا من الوجود فان ذلك يعود بنا الى موقف ارسطي وباكوني تجريبي للمعرفة وليس الى موقف علمي.

فالاستنباط هنا يعني ان العلم يمثل تجريد الكليات من الواقع مباشرة وهو معنى ما قبل علمي لان العلم حسب ما تؤكد الابدستمولوجيا المعاصرة يمثل عقلانية مطبقة فالعلم لا يعكس الواقع باعتباره معطى مباشرا بل انه يتجه الى تأسيس نظرية قابلة للتطبيق فهو بالظبط عكس ما يعنيه انجلز فاتجاه العلم كما يؤكد على ذلك باشلار Bachelard

ثم الثوسر هو من النظرية الى التطبيق وليس من الواقع الى القانون او الفكر، فقد بين الثوسر أن المفاهيم العلمية هي دائما مؤسسة على قاعدة ايدولوجية فالفكر هو دائما وابدا حاضر في كل عملية علمية. والوهم يتمثل في اننا نأخذ افكارنا كانعكاس للواقع باعتباره معطى مباشرا. ولعل ذلك هو ما يعنيه ماركس «بالكلية المجسمة باعتبارها كلية فكرية، فالمجسم

الفكري هو في الحقيقة نتاج للدماغ المفكر...» لذلك فان الاقتصاديين البورجوازيين حين يبدؤون ابحاثهم في المجتمع والاقتصاد بمقولة السكان يعتقدون انها تمثل المعطى المباشر

لكنها في الحقيقة عبارة عن مجسم فكري وليس معطى فالحدث العلمي هو حدث مكون، ومركب وليبر معطى مباشرا هذا يؤكد به باشلار. لذلك لا معنى لقول انجلز ان قوانين الجدول مستنبطة من الواقع لاننا لاثستنبط قانونا من الواقع بل من نظام نظري يخضع هو ذاته الى عملية تثبتت تجريبي لكن التجريب لا يعني هنا التجربة فالتجريب هو نظرية مجسمة وحتى ادوات التجريب تمثل نظرية مجسمة.

هل يسقطنا ما ذهبنا اليه من كون اتجاه العلم المعاصر يذهب من النظرية الى التطبيق وليس من الواقع الى الفكر في نظرة مثالية للنشاط العلمي تنطلق من وجود عقل او مقولات عقلية قبلية بالمعنى الكانتي؟ ابدا لان المفهوم او المقولة يتكونان دائما عبر عملية بنائية تدريجية وتاريخية تتحكم فيها جملة من المعطيات، النظرية وحالة تطور العلم والفلسفة والايديولوجيا الخ... فكل علم يتجه الى بناء نماذج تفسيرية انطلاقا من الاليات النظرية التي تتوفر له وخصوصا منها المنطقية بواسطتها يحاول ان يفسر حدثا معينا وليس الوجود ككل.

هل هذا هو المعنى الذي اعطاه انجلز للمادية الجدلية كعلم وقوانين الجدلية كقوانين الوجود؟ لا وهو ما سنؤكد عليه من خلال تتبعنا لبعض الامثلة التي قدمها انجلز في مجال الطبيعة والمجتمع لتأكيد المادية الجدلية.

يقدم انجلز للتأكيد المادي لقانون تداخل المتناقضات القانون الفيزيائي الفعل ورد الفعل Action et Réaction ان تقديم هذا القانون كتأكيد للمادية الجدلية في ميدان الطبيعة يعكس درجة الخلط والغموض التي وصل اليها انجلز فهذا القانون ليس جدليا في شيء بل على العكس هو قانون الي يؤكد نقيض ما اراد انجلز البرهنة عليه، فالمعنى الذي اعطاه

التراث الماركسي لقانون تداخل المتناقضات يتمثل في ما بعد بقانون وحدة المتناقضات الذي يعني بالاساس ان كل ظاهرة تحتوي على قطبي تناقض هذان القطبان تربطهما ببعضهما علاقة وحدة وتناقض مثلا الرأسمالية تمثل وحدة تناقض بين البورجوازية والبروليتاريا وهكذا فهذا التحديد لا معنى له في مثال الفعل ورد الفعل اولا لان رد الفعل لا يمثل نقبض الفعل بل هو نتيجة للفعل ثانيا لان الفعل يتم باعتبار حدث مغاير للحدث الذي يتم عليه رد الفعل، فالعلاقة التي تربط الاثنتين هي علاقة سببية الية وليست علاقة جدلية بالمفهوم الذي يعطيه الماركسيون لهذا التعبير. نفس الشيء يمكن ان نذكره في ما يخص الوراثة والتكيف فعلاقتهما ليست علاقة تناقض على العكس ففي الوراثة هناك عنصر ثبات تؤكد نظرية ماندال لا يتماشى والفكر الجدلي المادي وهو ما قامت وقعدت له الدنيا في الاتحاد السوفياتي في عهد ستالين مع لسنكو فقد رفضت نظرية ماندال وحوكم المانداليون السوفياتيون وسيطرت افكار لسنكو على اكااديمية العلوم وتعلم انعكاس ذلك على التجارب في الميدان الفلاحي. لقد قام Lecourt Dominique بتحليل كل النتائج المنجرة عن ذلك التصور للمادية الجدلية بتفكيك نظرية لسنكو وربطها بجهاز الدولة الستاليني(1) كما ان Pierre Raymond قد ناقش بصفة موسعة افكار انجلز في جدلية الطبيعة وبين خطأها العلمي (2) ان عدم الدقة والوضوح والخلط للذين نجداهما في الامثلة التي استقاها انجلز من الفيزياء او علم الحياة لتأكيد جدلية الطبيعة نلاحظهما كذلك في المجال الاجتماعي التاريخي. فلو اخذنا

Dominique lecourt - Lyssenko - E. Maspero Paris (1)

Pierre Raymond - Logique et Matérialisme (2)

Dialectique - E. Maspero - Paris

مثلا قانون نفي النفي وطبقناه على قانون الخمسة انماط انتاج فانه يعطي النتيجة التالية : الراسمالية تنفي الاقطاعية والاشتراكية تنفي الراسمالية فكما يقول باديو Alain Badiou (3) حسب التحديد الهيجلي للنفي ونفي النفي فان تحقيق الاقطاعية يتمثل في المجتمع الاشتراكي وهو كلام لا معنى له. نفس النتيجة يمكن ان نصل اليها اذا اعتبرنا ان الشيوعية هي تحقيق لمرحلة المشاعية البدائية فعوضا عن تصور جدلي للمجتمع نتحصل في هذا الاتجاه على فكرة العودة الابدية كما يؤكدنا نيتشة باعتبارها فكرة لا جدلية.

نفس النقد يمكن ان نوجهه لقانون تحول الكم الى كيف فمثلا هل التراكم الكمي للنقد يؤدي الى تحول كيفي؟ ان التاريخ لا يؤكد ذلك فيمكن ان يحصل تراكم كمي في النقد بدون ان يؤدي الى تحول كيفي وهو ما يؤكد ماركس نفسه فالتراكم النقدي في المجتمع الاغريقي او في المجتمع العربي الاسلامي القروسطي لم يؤدي الى تحول كيفي ولم يعط الراسمالية فهناك شرط ضروري يجب ان يتوفر وهو فصل المنتج عن وسيلة انتاجه فبالرغم من توفر النقد في المجتمع العربي الاسلامي القروسطي فانه وذلك لانعدام الشرط الثاني لم ينشأ نمط الانتاج الراسمالي والا لاصبح نمط الانتاج الراسمالي لا يخص فترة تاريخية ونمطا خاصا بل نجده في كل مراحل التاريخ حتى في الجاهلية الم يحصل تراكم نقدي في تلك الفترة؟ ان هذا الارتباك والغموض وفي بعض الاحيان التناقض في الامثلة التي استدلت بها انجلز على صحة المادية الجدلية في الطبيعة والتاريخ يصاحبه غموض كذلك في مستوى المعنى المعطى للمادية الجدلية. فمع التاكيد الرئيسي على كونها تمثل قوانين الوجود فانه يستعملها احيانا اخرى على

Alain Badiou - Théorie de la contraction

(3)

E. M. Paris

انها فلسفة صالحة للعلماء مقابل فلسفتهم العفوية السيئة
واحيانا اخرى تأخذ معنى يقترب من التصور الانجلو سكسوني
للمنطق كعلم العلوم حيث يعتبر انجلز انها ستقتصر على تفسير
قوانين العقل اي تصبح منطقا ثم بعد كل هذا فمن الشرعي ان
نتساءل عن مدى سلامة الحديث عن التناقض او الصراع وعن
نفي النفي بالنسبة للطبيعة، الا يعود بنا هذا التصور الى
موقف غائي يجعل من الطبيعة كائنا واعيا تملك هدفا تسيير
نحوه وهو تصور طالما صارعه العلم؟ الا يؤدي هذا بالمادية
الجدلية الى الانزلاق نحو موقع هيغلي يؤكد ان الطبيعة
اللاعضوية، والكائنات العضوية والتاريخ تتجه في مرحلة نحو
تحقيق المطلق؟ ثم، وهو ما يهمننا بالدرجة الاولى، كيف نسمح
لانفسنا مع التاكيد على علمية تصورنا ان نخضع الظواهر كلها
الفيزيائية والحية والتاريخية الى قوانين واحدة حتى ولو كانت
قوانين الجدلية الا تعود هذه المجالات المختلفة الى زمنيات
وتاريخيات مختلفة تستوجب مسكا منهجيا مختلفا؟ فكيف
يمكن ان نخلط هذا الخلط بين مجال الطبيعة (فيزيائية، حية)
وبين مجال الحدث الاجتماعي التاريخي؟ بل اكثر من ذلك ان
تصور علم البيولوجيا ابتداءا من داروين نفسه بدأ يؤكد على
استقلالية زمنية وتاريخية للواقعة الحية. ان كل هذه التساؤلات
ضروري طرحها لان السكوت عنها يضر اكثر من ان ينفذ
الفكر المادي الجدلي والممارسة التي ينتجها في المجال
الاجتماعي والسياسي. كما انه يتدخل في مجالات وميادين
قد لا تكون له علاقة مباشرة بها كمجال الممارسة العلمية
مثلا. لكن لسائل ان يسأل اذا كان ما تقدمت به صحيحا فعلينا
ان نرفض الفكر المادي الجدلي؟ وفي اخر الامر ماذا بقي منه؟
ان الجواب على هذا السؤال اعقد من ذلك بكثير فبالرغم مما
قدمناه فان المادية الجدلية تبقى على فعاليتها واجرئيتها لكن
قبل ان نبرز ذلك لا بد ان نعود لنتتبع نشأة الفكر المادي
الجدلي تاريخيا وعلاقته بالفكر الجدلي عموما. وهو ما يمكننا

من توضيح الاسباب التي ادت الى هيمنة التصور الانطولوجي العلماني على الفكر المادي الجدلي.

● تتبع تاريخي لنشأة الفكر الجدلي وتطوره = الفكر الجدلي الماقبل ماركسي

لم ينشأ الفكر الجدلي في صفاء تأمل العقل للوجود بل ومنذ بداية نشأته على يد هرقليدس Heraclite كان وليد الصراع ضد الفكر الباحث عن الثبات وراء التغير فالوجود هو سيلان من التغير والحركة لا يثبت امامه شيء. فقد سجلت اللحظة الفكرية «الهرقليديتية» كتنقيض للثبات «البارمنيدي» Parmenide «قزنيون الايلي» Zénon' تلميذ «بارمنيدي» يؤكد انه اذا كان وجود الاشياء هو خضم من التغير اللانهائي «فاشيل» لا يلتحق بالسلفاة والسهم لا يدرك المرمى وهذا ما عرف بمفارقات زنون هذا الصراع البرمينيدي الهرقليدي بين ثبات الوجود وتغيره طبع التفكير الفلسفي واصبح احدى القضايا الفلسفية الرئيسية وباستثناء الفترة القصيرة التي ظهر فيها الفكر المادي القديم مع الذريين اليونانيين فان فكرة الثبات هي التي سيطرت على الفكر حتى عصر النهضة تقريبا، ولئن تعرض افلاطون Platon الى الديالكتيك فلكي يجعل منه قضية العقل. فتغير المادة يجعلها غير قابلة لاسكان الحقيقة وثبات الفكرة المتعالية عن المادة هو موضع المعرفة الحقيقية والوصول اليها يتطلب من الفكر عناء الصعود (الديالكتيك الصاعد) الى عالم الحقيقة والنزول منه (الديالكتيك النازل) لتبليغه فهي لحظة تأسيس السياسة على المعرفة (نظرية الفيلسوف الحاكم) وهكذا سحب افلاطون الديالكتيك من الوجود وجعل منه قضية عقلية معرفية.

لئن مكنت الاكتشافات العلمية مع كوبرنيك وكبلر وجاليلي المادة من استرجاع منزلتها المعرفية التي سحبها منها الفكر القديم منذ افلاطون فان الحركة والتغير اللذين عادا الى المادة

بقيا في حدود الحركة الالية وهو ما يبرز مع الفلاسفة
الماديين الاليين اما العقل فانه اصبح في موقع المنتظر للمعرفة
وليس فاعلها. ان موقع العقل كمنتظر لمجيء المعرفة بواسطة
الحواس هو الذي يفسر ردة الفعل الكانتية لارجاع حركية
الذات المفكرة في المعرفة.

ان شروط امكان المعرفة تستوجب في نظر «كانت» توفر
المعرفة الحسية لكنها لا تعدو ان تكون منشطا لمقولات الفكر
القبلية التي تنظم اطار التجربة اي الظاهرة اما الجواهر فتبقى
خارجة عن شروط الامكان هذه.

ان كانت Kant الذي بنى فلسفته على نقد الوثوقية
الميتافيزيقية القديمة قد ابقى في نظر هيغل المجال مفتوحا
للميتافيزيقا بالتاكيد على عجز الفكر على معرفة الاشياء في
ذاتها فكانت حسب هيغل لم يجتز الا نصف الطريق. لذلك
فقد عهدت اليه هو انجاز المهمة كلها هذه المهمة لا تتمثل فقط
في اتمام ما ابقاه كانت بل في انجاز مهمة الفلسفة كلها. وتتمثل
هذه المهمة في الاندماج مع العقل اي المطلق. وبالفعل فقد
انطلق هيغل من النقدية الكانتية ك لحظة «الوعي المتالم» الذي
يجد كماله في فلسفة هيغل ان الذاتية الكانتية تبقى عاجزة
عن مسك الواقع والموضوعية اذا لم تلتمح بالموضوعية
«السشلفغية» و «السبينوزية» هذا الالتحام بين الذات والموضوع
يمثل الفترة «الاحادية» Moniste في فلسفة هيغل. فالواقع
ليس الا موضوعات للعقل تمثل فترات منه تعي نفسها
تدرجيا لتصل مع التاريخ الى الاندماج فيه فتصبح مطلقا.
لا شيء اذن يبقى خارجا عن العقل والمطلق.

ان الجديد الذي يظهر مع هيغل Hegel هو احتواء
التاريخ في الفلسفة وهو ابتعاد عن الطبيعة السشلفغية
والسبينوزية التي لا تولد الا نقيضها وهي الذاتية الكانتية.
فالتاريخ هو الذي مكن الوجود من تحقيق ذاته في المطلق.

ان جدلية هيغل تتمثل في قدرة العقل على ان يصبح واقعا وقدرة الواقع على ان يتحقق في العقل وهكذا تنجز الجدلية فلا ثبات في الوجود وحركية في العقل (اللحظة الذاتية) ولا حركية في الوجود وثباتا في العقل (اللحظة المادية الواقعية).

● ظروف نشأة الفكر المادي الجدلي وتطوره

لقد نشأت المادية الجدلية على انها تجاوز مادي للهيكلية فبالرغم من طموح هيغل الى تجاوز الثنائية ذات /موضوع. الا انه حسب ماركس وانجلز ابقى على جوهر الفكر المثالي بمقولة العقل والمطلق فاذا كانت جدلية الواقع تمثل انعكاسا لجدلية العقل. فهيجل لم يتجاوز المثالية بل اكدها، فالجدلية الهيكلية لا تجد تحقيقها الا في «قلبها» الذي يجعل من جدلية الفكر انعكاسا لجدلية الواقع. فالواقع حسب انجلز لا يوجد الا في تغيره وحركته المستمرين (عودة الى هرقليدس) هذه الحركة الدائمة تولد حركية الفكر. وهكذا فان الماركسية لم تأخذ من هيغل الا نواته الجدلية فأعطتها محتواها المادي.

ان عملية القلب هذه لا يمكن فهمها اذا نحن فصلناها عن الظرف الذي نشأت فيه المادية الجدلية. لقدد رأى هذا الظرف تعدد الاكتشافات العلمية (فيزياء، كيمياء، بيولوجيا الخ...) لكن الاهم من كل ذلك انه عاصر تركيز نظام اجتماعي جديد وهو النظام البورجوازي وكل ما صاحبه من انهيار لركائز النظام القديم الاقطاعي ثم ولادة حركة جديدة في التاريخ وهي حركة طبقة البروليتاريا. فماركس وانجلز لم يكتفيا بتتبع هذه الحركية التاريخية كما فعل هيغل بالنسبة للثورة الفرنسية بل انهما قد شاركا بصفة فعالة فيها. فقد كانا قائدين سياسيين للحركة العمالية في اوروبا. ان الانقلاب التاريخي الذي شهدته اوروبا في المستوى الاجتماعي والسياسي والايديولوجي قد اثر تأثيرا حاسما على نشأة المادية الجدلية.

لكن هذا الوضع الجديد لم ينشئ المادية الجدلية فقط بل
نشأ عدة تصورات أخرى تأثرت به وحاولت أن تخلق نموذجا
جديدا للتوازن الاجتماعي المفقود، نذكر محاولات الفكر
الوضعي بالخصوص مع سان سيمون وكونت، كما نذكر
محاولات الفكر الطوباوي الاشتراكي مع أون وبرودون وغيرهما

إن البحث عن التوازن الذي فقد في القرن 19 هو الذي
ميز المحاولات الفكرية في تلك الفترة والماركسية قد نشأت
كلحظة من لحظات هذا البحث عن توازن اجتماعي جديد.
لكنها قد وجدت نفسها محاطة بالفكر المثالي والطوباوي
العاجز عن فهم حركية الواقع الجديد بهدف تغييره وبناء
واقع متوازن يحقق الإنسان. هنا بالضبط يكمن جوهر المادية
الجدلية، فهي تؤكد على ماديتها كردة فعل على كل التصورات
المثالية والطوباوية وتسجل جدليتها ضد كل ميتافيزيقا تثبت
الواقع ولا تمسكه في حركيته، فكل كتابات ماركس وانجلز
من كراريس 1848 إلى راسمال مرورا بالايديولوجيا الألمانية
والكتابات السياسية لا تفهم إلا في هذا الإطار: تأكيد النظرة
المادية ضد كل التصورات المثالية فتصور الاشتراكية كنظام
اجتماعي يخلق توازنا جديدا للمجتمع لا يكون إلا علميا أي
ماديسا.

وهكذا فقد تأسست المادية الجدلية كردة فعل ايديولوجية
وسياسية امام تحول النظام البورجوازي الجديد الى نظام
مستغل بعد أن قضى على النظام الاقطاعي وصراع الطبقة
البروليتارية ضد هذا الاستغلال. هذا الصراع الذي ينبىء بفجر
نظام اجتماعي جديد يقضي على الاستغلال ويحقق توازن
الإنسان. هذا ما يبرز لنا بوضوح في كل كتابات ماركس
وانجلز اذا أخذناها كوحدة ولم نقر «بالقطيعة» اللثوسرية
بين كتابات «الشباب» و«الكهولة» لأن هذا المشروع والهدف
يبرزان بصفة خاصة في كتابات الشباب مخطوطات 1848 و

«المسألة اليهودية» و «الايديولوجيا الالمانية» وهي الفترة التي يدعو فيها ماركس الفلاسفة الى تجاوز التأمل والتفسير الى التغيير.

هذا المشروع نسميه بالمشروع الايديولوجي فقد قام على قاعدة مشروع عام تغييرى هو الاشتراكية وهو لا ينحصر في ماركس وانجلز بل يتجاوزهما الى كل تعبيراته الروسية الفوضوية، والاشتراكية الطوباوية الالمانية والفرنسية والانجليزية. فالاشتراكية قد مثلت في القرن 19 مشروعا ايديولوجيا يعوض الفوضى والاستغلال الذي اقامته الرأسمالية. وماركس وانجلز لا يخرجان عن هذا الاطار والقاعدة. فمشروعها هو جزء من المشاريع الاشتراكية التي ظهرت في القرن 19 لكن بخلاف كل الاشتراكيين فقد بحث ماركس وانجلز عن نقطة يرسخان بها مشروعها في الواقع المادي. في هذا الاطار تولد مشروعها النقدي للمثالية والطوباوية والاقتصاد السياسي. هذا النقد هو اللحظة التي ولدت ما اصبح يسمى بالعلم في التراث الماركسي : (المادية الجدلية والتاريخية) فالاشتراكية كمشروع لا تتحقق الا اذا ولدها الواقع اي اذا كانت تمثل الواقع في حركته. وبالتالي اذا مثلت ارادة الواقع نفسه، فلا يتم تحقيقها الا اذا كان الواقع قد افصح عنها. في هذا الاتجاه اذن نضع كل انتاجات ماركس وانجلز في الاقتصاد السياسي وبالاساس كتاب «راس المال» فهو لا يمثل لحظة «القطيعة» بقدر ما يهدف الى لحظة تسجيل المشروع الاشتراكي في الواقع. ان اهتمام ماركس وانجلز باعطاء بعد واقعي لتصورهما للاشترائية هو الذي يفسر الحاحهما على اكساء تصورهما لللباس العلمي.

فالاشترائية لا تكون ممكنة الا اذا كانت علمية، وتنبع تطور المجتمع الرأسمالي وتفككه لا يكون الا علميا.

هل تأثر ماركس وانجلز بالفكر الوضعي العلماني المتفائل

الذي ساد القرن 19 ؟ اكيد، وهذا ما جعل انجلز يتجاوز مشروع نقد ما هو غير علمي طوباوي ومثالي، في المجال الاجتماعي والتاريخي وتحميل الفكر المادي الجدلي ما لا طاقة له به وهو تفسير الظواهر الطبيعية انطلاقا من المادية الجدلية وهكذا وحسب هذا التصور لا تكتفي المادية الجدلية بالافصاح عن حركة التاريخ التي تتجه الى بناء الاشتراكية بل تفصح كذلك عن مسار الطبيعة وحركتها بصورة اخرى ان المادية الجدلية هي حركة الوجود ذاته فهي اذن الواقع في صدقه المطلق. انني اعتبر اذن ان المشروع العلمي النظري عند ماركس وانجلز قد جاء لتأكيد مشروعهما السياسي والايديولوجي وهو تحقيق المجتمع الاشتراكي فهدفهما الرئيسي لم يكن بناء علم بالمعنى الذي حدده الثوسر بل ترسيخ المشروع الاشتراكي في الواقع، وتبريره واقعيا. هذا هو اذن الهدف الاول الذي يبرز في المشروع النظري في لحظة نشأته. لكن هذا المشروع الاول تعرض لعملية انزلاق تدريجية بدأت مع ماركس وخصوصا انجلز وتواصلت بعدها لتصبح تصورا سائدا في الفكر المادي الجدلي ويتمثل هذا الانزلاق في ما عبرت عنه في البداية بالموقف او التصور الانطولوجي الوضعي للمادية الجدلية. فترسيخ بناء الاشتراكية في الواقع لا يتم الا بواسطة العلم. وفي هذا الاطار فقد عكس ماركس وانجلز التصور السائد في عصرهما. العلم وحده يمثل الحقيقة فالمادية الجدلية والتاريخية لا تتأكد في الواقع الا باعتبارها انعكاسا علميا لهذا الواقع نفس التصور العلماني نجده عند سان سيمون واغسط كونت. في القرن 19 اصبح القول العلمي مقياسا لكل الاقوال الاخرى وتجاوزا لها بعد نفيها. فالقول العلمي يمثل القول المنتصر المتفائل. فهو لم يكن قد عرف بعد الازمات الداخلية التي طبعت بطابع نسبي ولم تكن قد برزت بعد الانعكاسات الاجتماعية لهذا التصور العلماني الانتصاري.

لكن التصور الانطولوجي العلماني وهذا ما يعطي للماركسية تكوينها المعقد والمتناقض، كان متواجداً مع تصور ثان يرتبط بالممارسة السياسية الاجتماعية لكل من ماركس وانجلز. فالماضية والجدلية باعتبار هذا التصور الثاني لا تمثلان ذلك القول الذي يؤصل صدقه في الواقع بل هما بحث متواصل عن الطرق العملية لتتبع نضالات البروليتاريا وتنظيمها ومساعدتها على تركيز نظامها الاشتراكي. هذا التصور الثاني يتميز بقلقه وتردده، وتراجعاته وانتكاساته وتفاؤله. كذلك فالحدد بالنسبة لهذا التصور الثاني ليس حتمية صازمة تخط طريقها غير عابثة بصراعات الناس وليس تفسيراً لتطور المجتمعات الانسانية بداية من المشاعية الاولى حتى الاشتراكية بالكشف عن القوانين الاقتصادية بل المحدد هو فشل كميونة باريس واسبابها والبحث عن طريقة تتمكن بها البروليتاريا من تجاوز فشلها، فهو تتبع لصراعات الفلاحين في المانيا وابرار لل دور التقدمي الذي لعبوه في ثورتهم وكيف ان الدين في صيغته «المنزنية» لعب دور المحصر لهم فتصور الفلاح في كتاب انجلز «حرب الفلاحين في المانيا» يتناقض مع التجاهل الذي نجده لدوره في رأس المال حيث يعتبر ماركس ان هناك ثلاث طبقات تؤسس نمط الانتاج الرأسمالي : البروليتاريا والملاك العقاريين والرأسماليين، ان هذا التصور الثاني ينعكس في ما سمي بالكتابات السياسية لماركس وانجلز في نقد برنامج غوتا، في الصراع الطبقي في فرنسا، في 18 برومار للويس بونبارت. فهو تصور متحرك يتتبع الصراعات الحية بهدف تركيز تكتيك واستراتيجيا لتنظيم البروليتاريا. هذا البحث لا يتم في سماء العلم الصافية المنتصرة، بل تحت ضغط الساعة والممارسة.

اذن فقد تعايش في صلب الماركسية التصور الوضعي العلماني مع تصور سياسي حركي يؤكد على اهمية الممارسة كمبدع فكري ونظري، وهو ما نجده في بعض تأكيدات ماركس

على ان الابدولوجي والسياسي يمكن ان يكونا محددين وان ليس هناك نظرية عامة لتطور المجتمعات الانسانية وهو نقد ضمني لنظرية انماط انتاج الخمسة وللنظرة الاقتصادية. هذان التصوران قد تعايشا وتزامنا في فكر ماركس وانجلز وفي مؤلفاتهما، لكن بقي التصور الثاني مسيطرا على الاول في حياة ماركس وانجلز، بالرغم من الاهمية التي اخذها التصور الانطولوجي الوضعي بالخصوص في اخر حياة انجلز مع «الانتي دورنغ وجدل الطبيعة».

ان هذين التصورين قد حددا تاريخ الفكر الماركسي فهما قد تواسلا فاعلين في كل فترة تاريخية. يسيطر هذا التصور او ذلك حسب الطرف السياسي الذي يجد فيه الماركسيون انفسهم. فمثلا بعد موت انجلز وتزعم كاوتسكي الحركة الشيوعية سيطر الفكر الوضعي العلماني الذي اخذ شكلا تطوريا ساذجا يمكن تلخيصه في «لنترك التاريخ يعمل عمله فقوائمه الحتمية ستحقق الاشتراكية وكل محاولة الى القفز عليها سيكون مالها الفشل» اننا نعلم تاريخيا أن هذه الفترة تميزت بتقهقر دور البروليتاريا وحركتها السياسية. فقد سيطرت البورجوازية على الصراع الاجتماعي واخذت هي المبادرة. هذه النظرة الكاوتسكية التطورية في المانيا قد وجدت نقبضها في روسيا وحتى في المانيا نفسها، الاولى مع الحركة الاشتراكية الروسية والثانية مع الحركة السبارتكية. لقد رفضت الحركة الاشتراكية الروسية التصور التطوري الكاوتسكي الساذج وابتكرت وسائل انتصارها : التحالف مع الفلاحين ونظرية الحلقة الضعيفة ودور الحزب ومفهوم الامبريالية الخ...

مع انتصار الستالينية شهد الفكر المادي الجدلي تراجعا وضعيا واقتصاديا تقنيا تمثل في اعتبار ان قوى الانتاج التي اصبحت وسائل الانتاج التقنية هي المحددة في مسار البناء الاشتراكي والتركيز على التجانس في المجتمع

(مقولة الشعب وانتهاء الصراع الطبقي). لكن حركية الثورة الصينية وقيادتها دخلت في تناقض عملي ونظري مع التصور الستاليني وتمثل ذلك في التركيز على العامل الذاتي وعلاقات الانتاج والايديولوجيا والسياسة في البناء الاشتراكي ورفض نموذج التراكم الاشتراكي الذي ساد في الاتحاد السوفياتي والتركيز على استمرار الصراع الطبقي في فترة بناء الاشتراكية والصراع الطبقي وسط الحزب واهمية التحالف مع الفلاحين الخ اذن كما لاحظنا فان التصورين المتناقضين الذين وجدناهما في فكر ماركس وانجلز : تصور علماني وضعي انطولوجي وتصور جدلي وسياسي قد تواسلا بتعبيرات مختلفة في كل المراحل التاريخية. بل اكثر من ذلك ففي كل فترة وفي كل فكر قد تعايش هذان التصوران فكما نجدهما عند ماركس وانجلز فان فكر لينين قد اشتمل عليهما، كما اننا نجدهما في فكر ستالين وماوتسي تونغ لكن دائما بهيمنة تصور على الاخر، فكما عرف البناء الاشتراكي كمونة باريس، والسوفيات والكمونة الصينية، قد عرف التركيز على التقنية وكهربة روسيا واللاحاق بالغرب تقنيا.

فما هو المحدد في سيطرة تصور على اخر ؟

انطلاقا من هذا التتبع نلاحظ ان فشل الحركة البروليتارية يمكن ان يؤدي الى نوعين من ردة الفعل الفكرية : اما ردة فعل تطويرية اقتصادية تركز على الحتمية التاريخية وانتظار تحقيقها للاشتراكية ونموذجها هو كاوتسكي، او ردة فعل جدلية سياسية تركز على ضرورة الخلق والابداع.

عملية البناء مثلا في نطاق الحزب او الدولة تؤدي كذلك الى تصورين متناقضين تصور يؤكد على التجانس ونفي الصراع والتمسك بالمبادئ نموذج الفكر الستاليني وتصور يرى ان عملية البناء لا تتم الا في توضيح التناقض وعبر الصراع ان كلا من هذين التصورين يجد في المبادئ

ما يبرر نظريته. فاما العودة الى المواقف السياسية والكتابات السياسية الخلاقة عند ماركس وانجلز واما التركيز على علم التاريخ وقوانينه الحتمية وجدل الطبيعة. بل ان نفس الفكر يمكن ان يحتوي على التصورين باعتبار فترات الصراع والازمة او البناء مثلا الحزب او الدولة فحسب الظرف يركز على هذا التصور او ذاك. بهذا المعنى يمكن القول ان كاوتسكي وستالين هما ماركسيان بنفس الدرجة التي نقول فيها بان لنين وماوتسي تونغ ماركسيان. فكل فريق يجد في فكر ماركس وانجلز ما يبرر تصوره للصراع والبناء. فهما لا يمثلان انحرافات عن الماركسية بل هما جزء منها وطرف من اطرافها فلا نجد في فكر ماركس وانجلز النقاوة والحقيقة مقابل الخطا والانحراف عند كاوتسكي Kautsky وستالين Staline فالقضية تتمثل في هيمنة تصور من التصورين المذكورين والمتواجدين في فكر ماركس وانجلز اما تصور انطولوجي علماني ياخذ شحلا اقتصادويا واما تصور جدلي. وهيمنة هذا التصور او ذاك مرتبطة بالممارسة السياسية والظرف الذي تجري فيه هذه الممارسة فكلما ارتبطت الممارسة بعملية بنائية حزب او جهاز دولة الا وكان التصور الاقتصادي العلماني هو السائد وهو ما حدث في عهد ستالين فالانطولوجيا والاقتصادية هي ايدولوجية اجهزة، وكلما احتدت التناقضات والصراعات هيمن التصور الحزكي الجدلي. فالماركسية ليست في شموليتها فكرا اطلاقيا، كليانيا كما يعتقد الفلاسفة الجدد ذلك كما انها ليست فكرا بريئا كما يعتقد الدغمائيون بل تمثل كما راينا وحدة فكرية متناقضة منذ نشأتها. فكما تحتوي على امكانية فعلية لتصبح فكرا كليانيا يرتبط بجهاز قمعي بتحويل المادية الجدلية الى انطولوجيا صادقة مطلقا. فانها يمكن ان تمثل فكرا متمردا جدليا مغيرا. ان سيطرة تصور على اخر ليست قضية علم او معرفة بل ترتبط بجملة الممارسات السياسية والوضع الذي توجد فيه. فكما استمد ستالين تصوراته من ماركس وانجلز فان ثورة 1917 والثورة الثقافية استمدتا تصوراتهما من

ماركس وانجلز. وهكذا يمكن للفكر المادي الجدلي ان يلعب دورا تقديميا ثوريا وهو ما يؤكد ماركس حول جدلية هيجل فاما ان تصبح اداة للاستقرار والابقاء على ما هو موجود او تصبح اداة فعالة للتغيير والتجاوز الفعلي لكل ما هو قديم.

بهذا المعنى لا تمثل المادية الجدلية علما ولا علم العلوم بل هي عبارة عن تكوينة فكرية ايديولوجية نظرية تأخذ موقفا من العالم موقفا ماديا وجدليا مقابل المواقف المثالية المؤكدة على الثبات والاستقرار وكل محاولة لتحويلها الى علم او علم للعلوم تؤدي حتما الى تجميدها وتحويلها الى حقيقة مطلقة تيرر ممارسات جهازية وتصبح اداة تؤكد على الثبات والاستقرار. فهي اذن تصور للعالم شمولي يهدف الى الممارسة والتغيير وبالتالي هي اقرب الى الايديولوجيا منها الى العلم والفلسفة بالرغم من احتوائها على نواة نظرية لكن وجود نواة نظرية لا يحولها الى علم فليست الماركسية الايديولوجيا الوحيدة التي تحتوي على نواة نظرية فالايديولوجيا البورجوازية كذلك تحتوي على تصور نظري كما ان الايديولوجيا الدينية تهدف كذلك الى محاولة لتفسير الكون. فاهمية المادية الجدلية لا تتمثل في طابعها العلمي بل في كونها تدعو الى الممارسة فهي براكسيس، بنفس الدرجة التي نقول فيها ان الدين براكسيس وان الايديولوجيا البورجوازية هي براكسيس فانا اسمي الايديولوجيات المذكورة (دين، بورجوازية، ماركسية) بالايديولوجيات العضوية التاريخية.

ما هي الايديولوجيا العضوية التاريخية ؟
اولا : انني كما هو واضح ابتعد عن التصور الكلاسيكي للايديولوجيا فلا اعتبرها كما راينا في الفصل الاول خطأ ولا وهما مقابل حقيقة العلم وواقعته. بل تمثل في نظري قولا صادقا باعتبار الوضع التاريخي الذي يجعلها ممكنة.

ثانيا : بهذا المعنى فكل ايديولوجيا عضوية تاريخية تعبر

عن ظرف او وضع تاريخي معين تستمر باستمراره وهي تختلف عن كل التصورات الفلسفية او الايديولوجيا الثانية التي تعبر عن مصالح فئة معينة او فترة تاريخية معينة. ثالثا : ان لحظة نشأة كل ايديولوجيا عضوية تاريخية تكمن في الصراع الذي يشق الظرف التاريخي بالمعنى المذكور سابقا وهو الهيمنة والمقاومة. فهي افراز للمقاومة. وهي لا تمثل في لحظة نشأتها طبقة او فئة معينة بل تمثل المقاومة التي تشق ظرفا تاريخيا معيناً.

رابعا : بالرغم من انها تفرز كتعبير عن المقاومة التي تشق الظرف كله. فانها تتطلب ذوات تاريخية تحولها من الامكان الى التحقيق الفعلي.

خامسا : بهذا المعنى فرغم كونها تعبيرا عن المقاومة التي تشق وضعا تاريخيا كاملا فانها تنوق الى الهيمنة وهي تصبح بالفعل هيمنة على كل فئات وطبقات المجتمع وهذه الهيمنة تتم عبر عملية القبول ولا تلجأ الى الضغط الا في حدود ضيقة.

سادسا : ان الايديولوجيا العضوية التاريخية تستمر ما استمر الوضع الذي انشأها لكنها حين تتحول من وضعها كتعبير عن المقاومة التي تشق الوضع الى الهيمنة تبدأ في الانحسار والتقلص وتأخذ طابعا طبقياً ضيقاً لذلك تلجأ أكثر فأكثر الى الضغط لان القبول لم يعد كافياً لهيمنتها، وكلما زادت عناصر المقاومة التي تشق الوضع الذي ولدها زاد دورها تقلصاً. لكن حتى وان وقع تجاوز الوضع الذي ولدها فانها لا تضمحل تماماً بل تستمر عبر الاجهزة التي بنتها ومورست من خلالها وقد تعود فتلعب دوراً معيناً اذا ما وقع الالتجاء اليها.

سابعاً : ما دامت مهيمنة فان كل تغيير لا يتم الا من خلالها، فلسفة، علم، فن، ايديولوجيات ثانوية، قانون الخ...

ثامنا : باعتبارها نتيجة للمماومة فان الايديولوجيا العضوية التاريخية تحتوي دائما على عناصر تدعو الى المساواة، والعدالة والى التمرد ورفض كل استغلال، لكنها في نفس الوقت كلما دخلت في عملية بنائية لتصبح هيمنية اكدت على الاستقرار والثبات والقبول وعادة ما تعتمد هذه التاكيدات على بعض التصورات المتضمنة فيها والتي تحتاج اليها الممارسة : (شمولية النظرة واطلاقتها مثلا التصورات الميتافيزيقية في الدين، الله كثابت، العالم الاخر القضاء والقدر المبادئ بالنسبة للتصور الايديولوجي البورجوازي، العلم بالنسبة للماركسية) هذه الثوابت تطبع عادة بطابع الحقيقة الثابتة فتصبح اداة فعالة في يد كل الذين يحاولون استخدامها لمصالحهم وتغيب كل عناصر التغيير والتمرد الاخرى لكن هذه العملية لا تتم بصفة مطلقة بل هناك دائما امكانية لاستعمال عناصر التغيير والمساواة والتمرد فيها بهدف رفض وضع سياسي معين، او استغلال.

قاسعا : ان كل ايديولوجيا عضوية تاريخية بهذا المعنى تمثل وحدة متناقضة. يمكن استعمالها للابقاء على وضع معين، او للتمرد عليه وذلك باستغلال عناصر الثبات والاستقرار او عناصر التمرد والتغيير فيها.

عاشرا : بهذا المعنى فان تاريخ الانسانية قد عرف ثلاثة اصناف من الايديولوجيا العضوية التاريخية الدين، الايديولوجيا البورجوازية، الاشتراكية، ان هذا التحديد يستوجب ملاحظتين: ١ - انه يمكن اعتبار الاسطورة ايديولوجيا عضوية تاريخية لكن مع بعض الخصوصيات حيث ان عنصر المقاومة التي نشأت عنه لم يحدد فقط في نطاق الظرف التاريخي بل بعلاقة عضوية مع عنصر الطبيعة. فالطبيعة قد لعبت دورا هاما فاتجهت نحوها المقاومة.

ب - لا اعتبر الماركسية هي الايديولوجيا الثالثة العضوية

التاريخية بل الاشتراكية بمعناها الواسع بما في ذلك الطوباوية او العلمية حسب تعبير انجلز لكن الماركسية هي الشكل الذي اخذته الاشتراكية والذي حولها من المقاومة الى الهيمنة وذلك لانها تجسدت في ذوات مارسوها وحولوها الى الامكان بهذا المعنى نفهم قولة سارتر «بأن الماركسية لا يمكن تجاوزها» لكن مع الاضافة باعتبار استمرار الظرف الذي ولدها. لكن في المطلق فهي ككل ايدولوجيا قابلة للتجاوز.

يمكن ان نوضح ما قدمناه عن طريق بعض الامثلة التاريخية فالاسلام مثلا (وهذا صحيح بالنسبة لكل دين) نشأ انطلاقا من المقاومة التي شقت الظرف كله، مقاومة طبقية، للذين يكنزون الذهب والفضة ومقاومة للطبيعة القاسية لكن وجود المقاومة لم يكف وحده بل استوجب ذواتا لتحويلها من الامكان الى الفعل هذه الذوات تمثلت في المجموعات الاسلامية الاولى التي تكونت والتي صارت بصفة معقدة لانتصار الايدولوجيا. وبمجرد تحولها من موقع المقاومة الى موقع الهيمنة استعملت كل عناصر الثبات والاستقرار فيها، الله، اليوم الاخر، القضاء والقدر لتثبيت هذه الهيمنة وفي ذات الوقت استوجبت اللجوء أكثر فأكثر للضغط لاستمرارها لكن شقتها جملة من الهرطقات التي ارتكزت في نشأتها على عناصر التمرد والتغيير واستعملتها عموما ككل ايدولوجيا دينية فان الاسلام تكرر في ممارسات واجهزة اعطته نوعا من الاستقلالية النسبية عن الوضع الذي انشأه وهو ما يفسر استمراره في وضع تغير لكن اذا ما قارنا الوضع في العالم العربي الاسلامي بالوضع في اوروبا نلاحظ أن الايدولوجيا الدينية في اوروبا الغربية اصبحت ايدولوجيا مريضة مستمرة لكنها لا تلعب دورا محددًا بينما تلعب الايدولوجيا الاسلامية دورا هاما في التغير وذلك لان الوضع التاريخي يمكنها من لعب هذا الدور. (فشل تركيز اقتصاد بورجوازي متكامل

وتركيز فكر لاثيكي متكامل وحيوية واستمرار الهياكل التقليدية،
والاستعمار الخ...)

فما زالت الايديولوجيا الدينية قابلة للاستعمال وذلك
بالاعتماد على عناصر التغيير والتمرد فيها بالرغم من انها
تمثل في الجانب الاخر تصورا وممارسة يتجهان الى الثوابت
والاستقرار وتبرير الموجود وذلك بالاعتماد على عناصر
الثبات فيها.

ونفس الشيء يمكن ان نقوله في ما يخص الايديولوجيا الدينية
في اوربا الشرقية. فقوة اجهزتها نتيجة لتخلف الثورة
البورجوازية التي وقعت فيها جعلت منها قوة حيوية استعملت
التمرد على الوضع التسلطي الذي تعيشه الفئات الشعبية
في بولونيا مثلا. لكن بالاضافة الى ذلك فان الاربين الشرقيين
يعودون في ذات الوقت الى عناصر المساواة والعدالة في
الايديولوجيا البورجوازية وحتى في الاشتراكية وهو ما
نلاحظه كذلك في العالم العربي الاسلامي فالعودة الى المساواة
والعدالة تتم بالاساس عبر الدين لكن هذا الاخير مضطر الى
احتواء عناصر المساواة والعدالة في الايديولوجيا البورجوازية
والاشتراكية نفس التتبع الذي قمنا به للدين يمكن ان نقوم به
في مستوى الماركسية لذلك فاننا لا يمكن ان نحكم على
الماركسية بالاعدام وننفيها لان الوضع الذي نشأت فيه مازال
مستمرا فبهذا المعنى لا يمكن ان نتجاوزها. كما انها ليست
بطبيعتها الفكرية اطلاقية كليانية او العكس. فهي ليست خارجة
عن تكوينها المتناقضة ككل ايديولوجيا عضوية تاريخية وهي
تفرز الاطلاقية والكليانية كما تفرز التمرد والتغيير. والتاريخ
يؤكد ذلك فيمكنها ان تصبح اداة للاستغلال وكذلك يمكن ان
تكون اداة للتفجير والتغيير، فالمحدد في هذا او ذاك ليس
طبيعة الفكر وحده بل ممارسته والظرف الذي يمارس فيه.
ولا تحل القضية برفضها او قبولها ونحن لا نغير من الامر
شيئا ان نحن اكدنا على علمية المادية الجدلية فيمكن باسم

الصراع ضد الدغمائية أن نبني تصورا دغمائيا إذ ليس هناك مقياس مطلق إذا اتبعناه ابتعدنا عن الدغمائية والتحنيط وإذا حدنا عنه حنطنا وجمدنا الماركسية فالقضية دائما تحل عبر يقظة فكرية وعملية مستمرتين والمحدد في كل ذلك هو حس الفئات الشعبية هذا الحس هو الذي يمكننا من التفتن السى تحول الماركسية من اداة للتححر الى اداة للاضطهاد والاستغلال.

ويساعدنا على ذلك الالتجاء دائما الى ما في هذا الفكر من عناصر تدعو الى التغيير والتحويل ورفض الاضطهاد لكن كمساعد فقط لاننا في الممارسة البنائية كتكوين حزب، او دولة الخ... وما تتطلبه من تركيز على الثبات والاستقرار يمكن ان تتحول الماركسية في ايدينا الى اداة استغلال فكل ايدولوجيا عضوية تاريخية في عملية تحويلها من الامكان الى الفعل عبر الذوات (طبقة، مجموعة، جهاز تنظيمي) تتطلب نوعا من الاعتقاد والثقة والثبات وهذا ليس خاصا بالماركسية بل نجده كذلك في الدين والايديولوجيا البورجوازية فبقدر ما يبرز ذلك كضرورة عملية فانه يمثل دائما نقطة التحول التي قد تؤدي بالايديولوجيا الى ان تصبح اداة قمع واستغلال وهذا تناقض موجود بصفة مستمرة يستوجب اليقظة الدائمة والاعتماد على الحس الجماهيري فهو وحده الذي يمكننا من التفتن الى التحول الذي طرأ على الممارسة والفكر. ولا اعتقد ان التصريح بأننا لسنا دغمائيين يمثل احسن سبيل للتخلص من التحجر فقد نتحجر باسم الصراع ضد التحجر. فالماركسية باعتبارها ايدولوجيا عضوية يفرضها الوضع لا تمحى بمجرد قرار او تحليل لانها ستستمر مادام الوضع الذي ولدها متواصل. لكن فعاليتها الاجتماعية والسياسية تتحكم فيها الذوات التي تمارسها فهي التي تجعل منها اداة للضغط والاستغلال والقهر وهي التي يمكن ان تجعل منها اداة للتغيير والتحرر. ففي هذا النطاق ليس هناك اي حتمية او اي قدرة

مسجلة فيها بصفة مسبقة، فكل تصور يجعل من الاشتراكية حتمية تؤدي الى تحرير الانسان يحولها من حيث يشعر او لا يشعر الى مبادئ مجمدة ومحنطة تقود الى استغلال الانسان وليس الى تحرره. فالمسألة اذن تتوقف على الذات التي تمارس عمل التغيير وقدرتها على استعمال المادية الجدلية استعمالا خلاقا.

فحين اراد الماركسيون (ماركس، انجلز، لينين) ان يتنبؤوا بالاعتماد على «قوانين التاريخ الحتمية» بحدوث الثورة في اوربوا المتطورة (انجلترا، فرنسا، المانيا) تحول هؤلاء من مجال الممارسة السياسية كميدان خلق الى مجال الحتمية الالية التاريخية، وليس من الصدفة في شيء ان يفشل ذلك وتحدث الثورات الاشتراكية بالضبط في الاماكن التي لم يكن من المنتظر ان تحدث فيها.

هذا بالرغم من ان لينين كسياسي استطاع ان ينجح في اعظم حساب سياسي وقع في التاريخ وهو القيام بثورة في اكثر مناطق اوربوا خلفا ونظريته في «الحلقة الضعيفة» تمثل خلقا وقع في مجال الممارسة السياسية وليس تنبؤا مستنتجا من حتمية تاريخية.

ان كل ممارسة سياسية خلاقة تتم في اطار ظرف لا يمكن تجاوزه (لا تطرح الانسانية على نفسها الا المسائل التي تستطيع حلها (ماركس). لكن هذا الظرف التاريخي لا ينفي الخلق والابداع في الممارسة السياسية بل فقط يعطيها حدودها. ومهما كان فان الظرف لا يفرض ابدا امكانية واحدة بل جملة من الاحتمالات والامكانات التي تكون كلها واردة ونجاح امكانية او اخرى لا يعني ابدا حتميتها. فالمسألة تتوقف على القدرة في الفعل والتاثير والمناورة لفرض هذه الامكانية او تلك. وعادة ما يحصل تمفصل وتشابك بين جملة

امكانات لتعطي امكانا جديدا لم يكن واردا في ما وقع التنبؤ به من الاحتمالات.

فاذا امكن لنا الحديث عن قوانين التاريخ فانها تكون متأخرة عن الاحداث دائما ولا تكون متعالية عليها. فلا تعدو ان تكون «تعقلا» لجملة الامكانيات التي كانت واردة في ظروف تاريخية ماضية. ان انتصار احتمال وتكريسه في الماضي هو الذي يحول الحدث الى حدث تاريخي لكنه لا يمكن ابدا ان يصبح ملزما لممارسة مستقبلية على اساس ان قوانين التاريخ فرضته. فالتاريخ في اخر الامر ليس الا تكريسا لاحتمال من جملة الاحتمالات التي برزت امام الممارسة السياسية وانتصاره لا يحوله الا الى مساعد على الممارسة لكنه لا يحوله الى حتمية او قدر. فلعل دراسة المحاولات الفاشلة والمتردة له نفس الهمية وفي بعض الحالات اهمية اكبر في الممارسة من البحث في الاحتمال الناجح، فهو أي الاحتمال الفاشل. يمكنك من طبع حركتك بطابع الامكان ويبعد عنها طابع الحتمية الذي من الاكيد انه يضر بالممارسة اكثر من ان ينفعها اذ يجب ان نضع الممارسة السياسية دائما في مستوى الامكان وبالنتيجة في مستوى الحرية والخلق والابداع وذلك لان زمانية الممارسة السياسية ليست زمانية خطية بل زمانية متراجعة، مترددة، شاعرة بخطورة قرارها، لذلك فهي قلقة لكنها في نفس الوقت زمانية حازمة، تأخذ القرار لان ممارستها الكلية لا تمكنها من الاستسلام: تتراجع لكنها لا تستسلم لان في استسلامها قضاء عليها. بهذا المعنى فهي تختلف عن زمانية التاريخ كحدث ماضٍ فهو يبقى في ذاته جامدا والممارسة السياسية هي التي تحركه فتعطيه معناه لان اي ممارسة سياسية تتجاهل الماضي والكل تحكم على نفسها بالموت حتى وان نجحت وقتيا اما اذا ما جعلت من هذا الماضي حتمية وقدرًا فانها تحكم على نفسها بالفشل فالظرف لا محالة بماضيه وحاضره هو الذي

يجعل ممارستك ممكنة بمعنى انه يمثل جملة العناصر التي
ستصنع منها الامكانية الجديدة لكن هذا الجديد لا يكون ابدأ
مرسوماً بصفة مسبقة في القديم لان هذا الاخير يمكن ان
يكون صالحاً لامكانيات اخرى ثانية وثالثة الخ...

اننا لو انطلقنا من تصور حتمي ومسبق لحدوث الثورة
الروسية فانها تكون اضعف امكاناً ورد في الظرف التاريخي
لتلك الفترة فالحزب البلشفي كان اقلية بالنسبة لكل الاحزاب
الاخرى والطبقة العاملة متخلفة وعدد الفلاحين كبير فالاحتمال
الاقرب لم يكن الثورة الاشتراكية بل الثورة الديمقراطية
البورجوازية قد تكون متجدرة لكنها تبقى بورجوازية.
لكن ماذا حصل بالفعل ؟

قامت ثورة تريد نفسها اشتراكية لان البلاشفة استطاعوا
استخدام العناصر والعوامل الموجودة التي ارتسمت فيها
عدة امكانيات، استخداماً انجح من البورجوازيين. فقد نجح
البلاشفة في مجال لم يكن يؤهلهم للنجاح بالدرجة الاولى
وفشل الليبراليون في مجال كان يؤهلهم اكثر للنجاح وبدون
شك وضع الظرف الذي نجحوا فيه حدوداً للعمل والمخطط
الذي ارادوا تطبيقه وارتبط بقاؤهم في السلطة كذلك بقدرتهم
على خلق وابداع الوسائل التي تمكنهم من البقاء وكان ضعف
وقوة خصومهم المحدد في ذلك ولعل هذا ما عناه
كاوتسكي حين كتب ان السلطة البلشفية سوف تسقط.
وان الثورة في روسيا ليست اشتراكية. ان ما كتبه كاوتسكي
يمكننا من ان نفهم انها مثلت امكانية فقط ولعلها لم تكن الاكثر
روداً بيد ان نظريته الحتمية للتاريخ واتباعه تصوراً تطورياً
لهذه الحتمية هو الذي جعل تنبؤه لا يتحقق وتستمر السلطة
البلشفية بالرغم من الحدود التي رسمتها لها العناصر والظروف
التي نجحت فيها. فضرورة هذه العناصر ليست حتمية بقدر
ما هي مرتبطة بالقدرة على استخدامها. واستخدامها لا يشبه
القانون المسبق بل يشبه استخدام عامل غير ماهر لمواد ليست

مؤهلة لصنع شيء معين ويستخرج منها شيئاً صالحاً بالمعنى
الذي استعمله فرانسوا جاكوب في كتابه Lesjeux du possible
في مجال التطور البيولوجي. Bricolage

بهذه الطريقة فحسب نفهم معنى التطور والجديد في
المسار التاريخي للإنسانية. فالجديد لا يولد من العدم لكنه
ليس مرسوماً بحروف صخرية في القديم فهو امكانية واحتمال
يبقى مرتبطاً بالقدرة الإبداعية للإنسانية على خلق وسائل
تجاوز الوضع الحالي وبهذا تتخلص من التصور الغائبي
للتاريخ وهو ما قد يعنيه الثوسر من قوله : «ان ليس للتاريخ
نهاية» فليس للتاريخ نهاية لا بالمعنى الديني ولا بالمعنى الهيجلي
ولا بالمعنى المادي التاريخي، فانتصار وبناء الاشتراكية ليس
مرسوماً مسبقاً في التاريخ. وانتصارها ليس متوقفاً على
حتمية بل مرتبطاً بقدرتها على استعمال العناصر الموجودة
التي تؤهلها أكثر للانتصار استعمالاً خلاقاً يمكنها من التغلب
على الامكانات الأخرى الواردة.

بهذا فقط نتصور مسيرة التاريخ وتطوره.

نصوص مختارة ومبوبة

اشكالية الجدلية في القديم

هرقليدس (النظرة الانطولوجية)

«...ان الكون الذي يبقى دائما نفسه بالنسبة لكل الناس، لم يخلق من طرف اي الاله، ولا اي انسان، فهو دائم ابدا، وهو كائن الان، وسيبقى ابدا دقيقا وابدأ حيا، يشغل بقدر وينطفئ بقدر. تعيش النار موت الهواء، ويعيش الهواء موت النار، الماء يعيش موت التراب، والتراب يعيش موت الماء ... [هكذا فان] الحركة الصاعدة والحركة النازلة متماثلتان . . في مركز الدائرة تنطبق البداية والنهاية . . . يجب ان نعلم ان الحرب كونية وان الصراع هو العدالة . . . [لذلك] فان هوميروس ليس على حق حين صلى لكي يضمحل الصراع من الارض، فلو تحقق دعاؤه فان كل شيء ينتهي . . . فالمرض هو الذي يجعل سلامة الجسم لذيفة، والشر يولد الخير والجوع يولد الوفرة والارهاق يولد الراحة . . . اننا ننزل ولا ننزل في نفس النهر واننا موجودون وغير موجودين [وهكذا] ... بالرغم من ان الناس يعتبرون بعض الاشياء حسنة والاحرى

سيئة فبالنسبة للالاه كل شيء عادل وحسن وطيب [هذا هو] النظام الخفي.»

مقتطفات مأخوذة من كتاب
Les premiers philosophes - E. S. Paris 1973
(تعريب المؤلف)

بارمينيد (التصور الثابت للكون)

«...انني سأتكلم وانت استمع الي واحفظ عباراتي :
لا يمكن ان نتصور الا طريقين في التفكير. الاول يقول انه
كائن وانه لا يمكن ان لا يكون وهو طريق الاقناع لان الحقيقة
تتبعه. والثاني يقول ليس كائنا وانه حتما لا يجب ان يكون
وهو طريق من المستحيل كشفه لان احدا لا يقدر على معرفة
ما هو ليس كائنا ولا يقدر على الكلام عنه، مستحيل . . .
نفس الشيء هو الكائن الذي يمكن التفكير فيه والكائن
الممكن . . . ان [الطريق الثاني] يتصوره الناس الذين
يملكون وجهين في جهلهم، لان العجز هو الذي يقود افكارهم
الضائعة وفي اندهاش يتركون انفسهم عمياء وصماء . . .
دون تمييز يعتبرون انه نفس الشيء وليس نفس الشيء. وكل
الاشياء تعود على نفس الطريق، . . . ابدا لا نستطيع ان
نبرهن ان اللاكائن هو كائن . . . لم يبق لي الا ان احدثك
عن الطريق الذي يقول : الكائن كائن. فالتعدد من المؤشرات
تبرز ان الكائن غير مخلوق ولا ينتهي لانه واحد، ثابت وليس
له نهاية، فهو لم يكن ابدا ولا سوف يكون لانه كائن، بكلية
حاضر واحد ومتواصل . . . اي ولادة تبحث له عنها ؟ كيف
ومن ماذا نشأ ؟ لا اسمح لك بأن تقول او تفكر انه نشأ من
لا شيء، لانه لا يمكن ان نقول او ان نفكر في شيء ليس كائنا.»

مقتطفات مأخوذة من كتاب
Les premiers philosophes - E. S. Paris 1973
(تعريب المؤلف)

رأى أبيقورس

خالف الاوائل. قال : المبادئ اثنتان : الخلاء، والصورة. اما الخلاء فمكان فارغ. واما الصورة فهي فوق الميكان والخلاء، ومنها ابدعت الموجودات وكل ما كون منها فانه ينحل اليها، فمنها المبدأ، واليها المعاد.

وربما يقول : الكل يفسد، وليس بعد الفراق حساب ولا قضاء ولا مكافأة ولا جزاء، بل كلها تضمحل وتندثر، والانسان كالحيوان مرسل مهمل في هذا العالم.

والحالات التي ترد على الانفس في هذا العالم كلها من تلقائها على قدر حركاتها وافاعيلها. فان فعلت خيرا وحسنا فيرد عليها سرور وفرح، وان فعلت شرا وقبيحا فيرد عليها حزن وترح، وانما سرور كل نفس بالانفس الاخرى، وكذا حزنها مع الانفس الاخرى بقدر ما يظهر لها من افاعيلها.

وتبعه جماعة من التناسخية على هذا الرأي.

مأخوذ من الملل والنحل للشهرستاني دار المعرفة بيروت 1975

الجدلية الحديثة

كانت

في تقسيم المنطق المتعالي الى تحليل
وجدلية متعالية (الجدلية الذاتية)

نقوم في المنطق المتعالي، بعزل الفكر (كما عزلنا الحساسية في الاستطيقا المتعالية) ولا نأخذ من معرفتنا الا الجزء من التفكير الذي يملك اصولا في الفكر. لكن استعمال هذه المعرفة الخالصة يفترض الشرط الاتي : ان المواضيع التي يمكن ان تنطبق عليها هذه المعرفة تكون قد تحصلنا

عليها في عملية حدسية، فبدون حدس كل معرفتنا تفقد مواضيعها. وتكون اذن فارغة، ان الجزء من المنطق المتعالي الذي يعرض عناصر معرفة الفكر الخالصة والمبادئ التي بدونها عموما لا يمكن ان نفكر في اي موضوع يمثل التحليل المتعالي. الذي يمثل في ذات الوقت منطق الحقيقة. فلا يمكن لاي معرفة ان تدخل في تناقض معها بدون ان تفقد في اللحظة كل محتوى، بمعنى انها تفقد كل علاقة مع اي موضوع وبالتالي كل حقيقة. لكن بما ان استعمال مبادئ الفكر الخالصة بدون اعتبار التجربة او حتى بالخروج عن حدود التجربة التي تمدنا وحدها بالمادة (المواضيع) التي تنطبق عليها المفاهيم الخالصة [اقول بأن هذا الاستعمال] جذاب. فان العقل يخاطر على استعمال مادي وذلك بواسطة استدالات لا جدوى منها لمبادئ شكلية للفكر الخاص. وبدون تمييز بيدي رايه في مواضيع غير معطاة لنا لا [بالتجربة] ولا بأي طريقة اخرى.

وهكذا اذا كان المنطق لا يعدو كونه قانونا صالحا للحكم على الاستعمال التجريبي لمفاهيم الفكر، فانه يصبح من الافراط ارادة تحويله الى اورغانون ذي استعمال كوني ولا محدود والاسراع الى تكوين احكام تأليفية بواسطة الفكر الخالص على مواضيع عامة وابداء الرأي فيها والتقريب في شأنها. حينئذ فان استعمال الفكر الخالص يكون جدليا. بهذا المعنى يجب ان يكون الجزء الثاني من المنطق المتعالي نقدا لهذا الظاهر الجدلي. واذا حمل عنوان الجدلية المتعالية فلا يكون ذلك باعتباره صناعة لافراز ظاهر من هذا النوع بصفة دغمائية (هذه الصناعة المنتشرة للاسف في الاوهام الفلسفية) لكن باعتباره نقدا يتبع الفكر والعقل في استعمالهما الفيزيائي المفرط من اجل اكتشاف الظاهر الخاطيء الذي يغطي ادعاءهما الفارغ. وتعويض هذا الطموح الذي يمدح نفسه لكونه عثر على المعرفة وعممها بواسطة قوانين متعالية وعوضها اذن بحكم يكتفي بمراقبة الفكر الخالص

وتمكينه من وسائل الحماية ضد كل الاوهام السفسطائية.
Critique de la Raison - غير مؤرخ
Pure traduction J. Bernis
(ترجم النص عن الفرنسية المؤلف)

هيجل

مفهوم الكل

ان الحقيقة هي الكل لكن الكل مثل الجوهر في عملية تحقيقه وانتهائه بواسطة تطوره. يجب ان نقول ان المطلق جوهريا هو نتيجة، يعني انه حقيقة فقط في نهايته. هذا ما يمثل طبيعته التي تكون واقعا فعليا باعتباره ذاتا او تطورا لذاته. وان بدا لنا ان تصور المطلق كنتيجة هو تصور متناقض فان اعتبارا واحدا يمكن ان ينظم هذا التناقض الظاهر.

البدائية المبدأ، او المطلق في اعلانه الاولي والاني هو فقط الكوني. اذا قلت : كل الحيوانات، فهذه الكلمات لا يمكن ان تؤخذ على انها معادلة لزولوجيا Zoologie وبنفس البداهة يبدو ان الكلمات : الاهی، مطلق، وابدي، الخ . . . لا تعبر الا عن الحدس بمعنى الاني. وهو اكثر من هذه الكلمات، فحتى الانتقال الى قضية تحتوي على سيرورة اخرى يستوجب استيعابها من جديد او هي واسطة هذه الواسطة بالضبط هي التي تولد فينا رعبا مقدسا. فكأننا باستعمالنا لها [الواسطة] لشيء اخر غير القول بانها لا تمثل المطلق، وليس لها مكان في المطلق، يجعلنا نتراجع عن معرفة المطلق.
بدون تاريخ
Phénoménologie de l'esprit
Tome 1 Paris
(I) التعريب والعنوان للمؤلف

هيجل

فكرة العقل (النظرة الانطولوجية)

...ان الفكرة الوحيدة التي تأتي بها الفلسفة هي فكرة العقل البسيطة، فكرة تعتبر ان العقل يحكم العالم وبالنتيجة فان التاريخ الكوني قد جرى عقلانيا. هذا الاقتناع وهذه الفكرة هي ادعاء بالنسبة للتاريخ ذاته. لكنها ليست كذلك بالنسبة للفلسفة. فقد وقع التدليل بواسطة المعرفة التأملية ان العقل - نكتفي هنا بهذا التعبير بدون الاحاح اكثر على العلاقة مع الالاه - يمثل جوهره [اي جوهر التاريخ] والقدرة اللانهائية والمادة اللانهائية طبيعية كانت او نفسية وكذلك فان الشكل اللانهائي يمثل تحقيق محتواه الخاص. فالعقل هو الجوهر بمعنى ان كل واقع يجد وجوده وصلابته فيه، فهو القدرة اللانهائية، وهو ليس عاجزا الى درجة انه لا يمثل الانموذجا ولا يوجد في الواقع وانما في رأس من رؤوس بعض الرجال، فهو المحتوى اللانهائي وكل ما هو اساسي وحقيقي ويحتوي على مادته الخاصة التي يصنعها بواسطة نشاطه الخاص. فهو لا يحتاج كالعقل النهائي، لوسائل خارجية واليات معطاة لكي يمد نشاطه بالمواضيع والطعام. فهو يغذي نفسه بنفسه وهو لذاته المادة التي يصنعها، فهو يمثل فرضيته الخاصة ونهايته هي النهاية المطلقة وهو يحقق نهايته وينقلها من الداخل الى الخارج لا في الكون الطبيعي فحسب بل حتى في الكون الروحي. في التاريخ الكوني الفكرة هي الحقيقة الازلية والقدرة المطلقة. فهي تتجلى في العالم ولا يتجلى اي شيء اخر غيرها. هذا ما تبرزه الفلسفة والذي يعتبر قد وجد ابرازه.

(تعريب المؤلف) Hegel : La raison dans l'histoire
coll. 10/18 Paris 1971

التاريخ الكوني (النظرة الانطولوجية)

التاريخ الكوني هو تجلي المسار الالاهي المطلق للعقل

في اعلى اشكاله : المسار التدريجي الذي بواسطته يصل الى حقيقته ويعي ذاته. ان الشعوب التاريخية، (الخصائص المحددة لآخلاقهم الجماعية، لدستورهم، لفنهم، لدينهم، لعلمهم) تمثل تشكيلات هذا المسار التدريجي وتجاوز هذه الدرجات يعبر عن الرغبة اللانهائية والدفعة التي لا يمكن مقاومتها لعقل العالم، لان تمفصلات هذه الدرجات وتحققها هي مفهومه نفسه. ان مبادئ العقول الشعبية، في تواليها الضروري، ليست سوى فترات العقل الفريد والكوني، بفضلها يصعد التاريخ الى الكلية الشفافة لذاتها ويؤدي الى الختام.

مأخوذ عن : La raison dans l'histoire coll. 10/18
Paris 1971

المادية الجدلية

أجلز

قوانين الجدل (النظرة الانطولوجية)

اذن فمن تاريخ الطبيعة وتاريخ المجتمع الانساني وقع تجريد قوانين الجدلية فهي ليست شيئاً اخر سوى القوانين الأكثر عمومية لهتين المرحلتين من التطور التاريخي وكذلك تطور الفكر ذاته. وتعود في اساسها الى القوانين الثلاثة التالية :

- قانون تحول الكم الى الكيف وعكسيا.

- قانون تداخل المتناقضات.

- قانون نفي النفي.

هذه القوانين الثلاثة قد طورت على يد هيغل بطريقته المثالية كقوانين مجردة للفكر : الاول في الجزء الاول من المنطق، في منهجية الوجود، الثاني تملا الجزء الثاني كله وهو اهم جزء من منطقته تحت عنوان منهجية الجوهر واخيرا يوجد الثالث كقانون رئيسي لبناء المنظومة كلها. ان الخطأ [خطأ هيغل] سيتمثل في كونه فرض هذه القوانين من فوق

على الطبيعة والتاريخ كقوانين الفكر، عوض ان يقع استنتاجها
منهما. ويؤدي ذلك الى هذا البناء القسري الذي يقشعر له
البدن : اراد العالم ذلك او لم يرد فانه يجب ان يتبع المنظومة
المنطقية التي تمثل نتاجا لمرحلة معينة من تطور الفكر
الانساني.

لو قلبنا المسألة فان كل شيء يأخذ وجهها بسيطا وقوانين
الجدلية التي تبدو غامضة جدا تصبح لتوها بسيطة وواضحة
كالنهار. Engels : Dialectique de la Nature -
E. S. Paris 1952 (التعريب والعنوان للمؤلف)

رسالة انجلز الى ج . بلوش (النظرة الجدلية)

حسب التصور المادي للتاريخ فان العامل المحدد في
التاريخ هو في اخر مستوى الانتاج واعادة انتاج الحياة
الواقعية. لم يقل ماركس ولم اقل انا اكثر من ذلك. اذا قام
احد ليحرف هذا الموقف وليجعل من العنصر الاقتصادي
العنصر المحدد الوحيد فانه يحوله الى جملة فارغة مجردة،
لا معنى لها. ان الوضع الاقتصادي هو القاعدة لكن مختلف
عناصر البنية الفوقية : كالاشكل السياسية للصراع الطبقي،
ونائجها والديناميات التي تركزها الطبقة المنتصرة الخ... ان
الاشكال السياسيين وحتى انعكاسات هذه الصراعات الواقعية
في دماغ المشاركين فيها، نظريات سياسية، قانونية، فلسفية،
تصورات دينية وتطورها الى انظمة دغمائية كل هذه العوامل
تؤثر بعملها على مسار الصراعات التاريخية وفي اغلب
الحالات تحدد بصفة كبيرة شكلها.

كل هذه العناصر تتفاعل ويؤثر بعضها في البعض الاخر
وتخترقها الحركة الاقتصادية في الاخير كحتمية ضمن نسبيات
لا متناهية وعديدة (بمعنى اشياء واحداث تكون المرابطة بينها

بعيدة وصعبة التدليل الى درجة اننا نعتبرها غير موجودة ولا نعيها اي اهتمام) ولولا [هذا التعقيد] فان تطبيق النظرية على اي مرحلة تاريخية يصبح اكثر بساطة وسهولة من حل معادلة بسيطة من الدرجة الاولى.

اننا نصنع تاريخنا في ظل ظروف معينة لكننا اولا نصنعه بمقدمات وفي ظروف محددة جدا. بالنسبة لكل العوامل فان الظروف الاقتصادية هي المحددة في الاخير لكن الظروف السياسية الخ... وحتى التراث الذي يحقق بأدمغة الناس بلعب دورا بالرغم من كونه ليس محدد.

مأخوذة من

Correspondance Marx/Engels
E. du Progrés Moscou 1980
(تعريب المؤلف)

قلب جدلية هيغل

ولا تختلف طريقتي الديالكتيكية في اساسها عن الطريقة الهيغلية فحسب، بل هي، ايضا، عكسها بالضبط. فحركة الفكر التي يجسمها هيغل تحت اسم المعنى هي، صانع الواقع الذي ليس هو سوى الشكل الظاهري للمعنى. اما بالنسبة الي فالامر على العكس، اذ ان حركة الفكر ليست الا ارجاعا فكريا لحركة الواقع، نقلت وحملت الى دماغ الانسان .

لقد انتقدت الجانب الصوفي من الديالكتية الهيغلية منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، في عصر كانت فيه ما تزال رائجة [ولكن في البرهة نفسها التي كنت فيها اكتب الجزء الاول من راس المال كان يطيب لرجال الصنف الثاني الجفأة المدعين الضحلين، الذين لهم الكلمة العليا في المانيا الثقافية، كان يطيب لهم ان يتناولوا هيغل تناول موسى مندلسون الطيب لسبينوزا زمن ليسنخ، اي على انه «كلب جيفة» ولذلك صرحت علنا بانني تلميذ لهذا المفكر الكبير ومضيت، في الفصل الخاص بنظرية القيمة، الى درجة وجدت معها نفسي، احيانا، اغازل

طريقته الخاصة في التعبير]، وعلى ان هيجل في لعبته الهزلية هذه قد شوه الديالكتيك بالصوفية فما برح اول من عرض حركته عرضا مجملا. ان الديالكتيك لديه، يمشي على راسه، ويكفي ان يعاد وضعه على قدميه كي نسترد له وجهه المعقول جسدا.

لقد اصبح الديالكتيك، في وجهه الصوفي، امرا رائجا في المانيا، لانه كان يبدو ممجدا للاشياء القائمة. اما في وجهه العقلي، فهو فضيحة وقباحة بالنسبة للطبقات الحاكمة ومفكريها العقائديين لانه بالنسبة للتصور الوصفي للامور القائمة، يتضمن توا الكشف العقلي عن نفيها الحتمي وتحطيمها الضروري ان الديالكتيك يلتقط الحركة ذاتها حيث كل صورة مكونة ليست الا تصميميا انتقاليا فلا يمكن ان يفرض عليه اي شيء؛ لان الديالكتيك هو اساسا نقد وثورة.

ان الحركة التناقضية في المجتمع الرأسمالي يستشعرها البورجوازي العملي، في احد اشكالها، في تقلبات الصناعة الحديثة عبر دارة دورية تعتبر الازمة العامة اوجا لها. ونحن نلاحظ، بالفعل، بوادرها، انها تقترب من جديد. وهي بكلية مجال عملها وحدة اثارها، سوف تدخل الديالكتيك حتى في رؤوس السماسرة الذين نبتوا كالفطور في الامبراطورية الالمانية البروسية المقدسة الجديدة (I).

مأخوذ عن : كارل ماركس

راس المال الكتاب الاول. الطبعة الثانية دمشق 1971

تعريب : انطون حمصي

تعليق لنين على كتاب هيجل

(النظرة الانطولوجية)

في الجدلية القديمة لا وجود للانتقال، ولا للتطور (المفاهيم

والافكار). لا وجود «لعلاقات داخلية وضرورية» للاجزاء كلها
ولا وجود لانتقال الواحد الى اخر.
يضع هيجل مطلبين اساسيين :

(1 «ضرورة العلاقة».

(2 «النشأة الداخلية للفروق».

هام جدا ! ! وهذا ما يعني حسب رأيي :
(1 علاقة ضرورية، علاقة موضوعية لكل الوجود، والقوى،
والاتجاهات الخ... في المجال المعطى للمظاهر.

(2 النشأة الداخلية للفروقات «المنطق الداخلي للتطور
ولصراع الفروق والاستقطاب».

مساوي الجدلية الافلاطونية. في « البارمينيد Parménide
تعتبر عموما الجدلية كعمل خارجي وسلبى، لا ينتمي
الى الشيء ذاته... ان اهميته كانت تتمثل في كونه ابعد عن
الجدلية ما يبدو فيها اعتباطيا. Lénine : œuvres tomes 38
- E. P. Moscou 1971 مأخوذ من :

(تعريب المؤلف)

كاوتسكي (النظرة التطورية)

ان اسطع طابع في البلشفية هو اقدامها وشجاعتها .
فاليهما تعود اكبر نسبة من انطباع الاعجاب الموجود عند
كثير من الانفس التي تتعاطف مع الاشتراكية. لكن توجد اصناف
عديدة من الاقدام. ولا يجب ان نعطيها كلها نفس القيمة.

يوجد مثلا اقدام كائن بشري يخاطر بحياته من اجل حب
هدف عال بالرغم من انه يعرف المشاكل والمخاطر التي
تنتظره.

اما اقدام اللاعب الذي يحب السهولة فان تخوفه من العمل يولد فينا اعجابا اقل « ان الانسان لا يملك الصبر اللازم لتحضير انتصاره بعمل طويل ومستمر ، فهو يحبذ الالتجاء الى حظه بمجرد ان تتوفر له فرصة لتحقيق ربح كبير بدون تعب من الوهلة الاولى...»

لا يمكن ان ننظر الى [المقدام] المتأثر بالجهل نظرة تعظيم فهو يقدم على طريق بدون ان يقدر الاخطار التي تنتظره والتي سيضيع فيها، ان احط انواع الاقدام هو الذي يرمي الانسان في الاخطار لانه لايعرف اي مخرج اخر لكي ينقذ نفسه من الانقراض التي تهدده من كل ناحية حين اقدم لنين سنة 1917 على الصراع من اجل الحصول على القوة العظمى، فالذي حركه هو بدون شك الاقدام من النوع الاول بالرغم من انه يوجد عند اكثر من رقيق من رفقاؤه شيء من السرعة. لكن حين تحصل على السلطة واخذ يقوم بتركيز جمهورية تهدف الى تجاوز كل الدول المقدمة وذلك على وسائل الرعب وبناء من يومها نمط انتاج اشتراكي متطور لشعب اغليبيته (اكثر من 100 مليون) تتكون من فلاحين اميين ينتجون بطرق بدائية جدا اذن حين قام بهذا العمل فان عمله ينتمي الى اقدام خارق للعادة لكنه اقدام من الصنف الثالث. ولكي يفرض هذا الاقدام نفسه فهو يستوجب قدرا لا بأس به من العباطة.

ان هذه التجربة المجنونة لا يمكن ان تنتهي الا بانقلاب مهول وحتى اكبر العباقره لا يمكن ان يتحاشاه. ذلك متأت كون المشروع غير ممكن التحقيق بالوسائل المتوفرة. وبقدر ما يقع الشعور بالفشل بقدر ما يبرز اكثر الاقدام من النوع الثالث الناتج عن الشعور باليأس ومن العجيب انه يوجد في اوربا الغربية اناس مثقفون واشتراكيون مقتنعون لهم موقف سلبي من الشيوعيين لكنهم مشدوهون بصنع المشاريع التي يقوم بها هذا النوع من الاقدام . . . وكان الاقدام وحده يمكن ان ينتج شيئا. ان الاقدام هو فضيلة في الحرب لكنه في مستوى

الانتاج لا يقدم اي شيء . . .

انني تساءلت على اي شيء يقوم شكنا [في هذه التجربة]
ان ذلك لا يقوم على ان التجربة من المحتمل ان لاتنج لكن
يجب القول «بكل يقين» انها ستفشل ويجب ان تفشل.
Karl Kautsky : Le bolchevisme dans :
مأخوذ من : l'impasse Puf. Paris 1982 (تعريب المؤلف)

غرامشي

الاقتصاد والايديولوجيا (النظرة الجدلية)

ان الادعاء (المقدم كمصادرة اساسية للمادية التاريخية)
التمثل في تقديم وضع كل تغيير في السياسي والايديولوجي
كتعبير اني للبنية، ان هذا الادعاء يجب محاربه نظريا
باعتباره طفولية بدائية، وعمليا يجب محاربه بالاستشهادات
الحقيقية من ماركس، كاتب المؤلفات السياسية والتاريخية
المجسمة.

من وجهة النظر هذه. فان النصوص الهامة تتمثل بالخصوص
في 18 برومار Brumaire ، والكتابات حول المسألة
الشرقية وكتابات اخرى كذلك (الثورة والثورة المضادة في
المانيا، الحرب الاهلية في فرنسا وبعض المؤلفات الاخرى)
ان تحليلا لهذه المؤلفات يمكن من تدقيق اكثر للمنهجية
الماركسية التاريخية، باعتبارها تكمل التأكيدات النظرية
المتقدمة في كل المؤلفات وتوضحها وتفسرها.

يمكننا ان نلاحظ عدد المرات التي اخذ فيها ماركس حذره
في بحوثه المجسمة، تخوفات لا تجد مكانها في الكتب العامة.
ومن بين هذه التخوفات يمكن ان نسوق هذه الامثلة :

(I) الصعوبة في الكشف بصفة جامدة (كالصورة الفوتوغرافية

الآنية) عن البنية والسياسة باعتبارها في كل فترة انعكاسا لاتجاهات تطور البنية، اتجاهات لا يمكن ان نقول انها حتما ستتأكد. ان مرحلة بنية معينة لا يمكن ان تدرس وتحلل بصفة مجسمة الا بعد ان تكون قد اتت على كل مسار تطورها، ولا في فترة سير المسار نفسه اللهم الا في شكل فرضية بشرط ان نعلن بوضوح انها فرضية.

(2) من هنا نستنتج ان فعلا سياسيا معيناً يمكن ان يكون خطأ في الحساب وقع فيه قواد الطبقات المهيمنة، خطأ يمكن تجاوزه وتصحيحه من طرف الطبقات المهيمنة من خلال «الازمات» الحكومية البرلمانية.

ان المادية التاريخية الميكانيكية لا تعتبر امكانية الخطأ، لانها تعتبر ان كل فعل سياسي محدد بالبنية اني، اي باعتباره انعكاسا لتغيير واقعي ومستمر (بمعنى في تحصيل الحاصل) للبنية: ان مبدأ «الخطأ» معقد يمكن ان يكون نتيجة اندفاع شخصي تولد من حساب خاطيء، او من محاولة تظهرها مجموعات تهدف الى الحصول على الهيمنة داخل تجمع قائد.

(3) لا نهتم بما فيه الكفاية بكون كثير من الاعمال السياسية هي نتيجة لضرورات داخلية لها طابع تنظيمي، يعني انها ترتبط بالشعور بضرورة اعطاء تماسك لحزب او مجموعة او مجتمع وهو ما يبرز بوضوح مثلاً في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، اذا اردنا ان نجد لكل صراع ايديولوجي يحدث داخل الكنيسة، تفسيراً انياً اولياً، في البنية فاننا لا يمكن ان نصل الى نهاية. فكثير من القصص السياسية - الاقتصادية قد كتبت باعتبار هذا الهدف. وبالعكس من ذلك فانه من البديهي ان اغلب اجزاء المناقشات ترتبط بضرورات تنظيمية ضيقة. ففي الحوار بين روما وبيزنطة حول فيض Procession الروح القدس St. Esprit فانه من المضحك

ان نبحث في البنية الاوروبية الشرقية التأكيد ان الروح القدس لم يفض الا من الاب وان نجد في البنية الغربية انه لم يفض الا من الاب والابن ان الكنيستين اللذين يرتبط وجودهما وصراعهما بالبنية وبكل التاريخ حين وضعتا مشاكلهما لم تفعل الا وضع مبدأ تمايزهما وتجانسهما الداخليين؛ لكن يمكن ان يحدث ان كل واحدة منهما تؤكد عكس ما تنفييه؛ ان مبدأ التمييز والصراع بالرغم من ذلك سيستمر والمشكل الاساسي الذي يمثل مشكلا تاريخيا يتمثل في مشكل التمييز والصراع.

مأخوذ عن : E. S. Paris 1975 Cramsci dans le Texe
(تعريب المؤلف)

حول التصور للعالم (المنظرة الجدلية)

...ان هذا التناقض بين الفكر والعمل، اي تعايش تصورين للعالم الاول يتأكد في الكلمات والآخر يبرز في العمل الفعلي ليس دائما نتيجة كذب او خداع. ان الكذب او الخداع يمكن ان يكون تفسيرا مرضيا بالفلسفة لافراد منعزلين او حتى لمجموعات قليلة، لكنه لا يكون مرضيا حين يبرز التناقض في حياة الجماهير الواسعة : فلا تكون عندئذ الا تعبيراً عن صراعات اعمق تاريخية واجتماعية وهذا يعني في هذه الحالة ان مجموعة اجتماعية (في الوقت الذي تملك فيه تصورا للعالم خاصا بها يبرز في العمل والممارسة) يمكن لاسباب تعود الى خضوع هذه المجموعة والسيطرة عليها فكريا قد استلقت من مجموعة اخرى تصورا ليس ملكها هي تؤكد في مستوى الكلمات وتعتقد انها تتبعه. في فترة عادية بمعنى آخر حين لا يكون سلوكها مستقلا وانما خاضعا.

مأخوذ عن : E. S. Paris 1975 Cramsci dans le Texe
(تعريب المؤلف)

ماوتسي تونغ (النظرة الانطولوجية)

يمكن ان نقول في الختام : ان قانون التناقض الكامن في الاشياء والظواهر ابي قانون وحدة المتناقضات يمثل القانون الاساسي للطبيعة والمجتمع ومن هنا القانون الاساسي للفكر، انه يناقض النظرة الميتافيزيقية للعالم واكتشافه مثل ثورة كبيرة في تاريخ المعرفة الانسانية. حسب وجهة النظر المادية الجدلية، فالتناقض يوجد في كل مسار يحدث في الاشياء والظواهر الموضوعية والتفكير الذاتي فهو يتخلل كل المسارات من البداية الى النهاية، وهنا يتمثل الطابع الكوني والمطلق للتناقض.

كل تناقض وكل وجه من وجوهه له خصوصياته، هنا يكمن الطابع الخاص النسبي للتناقض في ظروف معينة يوجد تماثل Identité للمتناقضات وبالتالي يمكن ان تتعايش في الوحدة وتتحول الواحدة الى الاخرى وهنا كذلك يكمن الطابع الخاص والنسبي للتناقض، لكن صراع المتناقضات لا ينتهي انه يتواصل في فترة تعايشها او تحولها المتبادل حيث تبرز بوضوح خاص. وهنا تكمن من جديد كونية والطابع المطلق للتناقض. عندما ندرس الطابع الخاص والنسبي للتناقض يجب ان ننتبه الى الاختلاف بين التناقض الرئيسي، والتناقضات الثانوية، بين الوجه الرئيسي للتناقض ووجهه الثانوي.

عندما ندرس كونية التناقض وصراع المتناقضات يجب ان ننتبه للاختلاف في الاشكال المتنوعة للصراع والا نسقط في الاخطاء. واذا كان لدينا في نهاية العرض هذا فكرة واضحة عليه يمكن ان نهزم التصورات الدغمائية التي تعترض المبادئ الاساسية للماركسية اللينينية والتي تسيء الى عملنا الثوري، ورفقاؤنا الذين يملكون تجربة يكونون في مستوى تحويلها الى مبادئ ولا يسقطون في تكرار اخطاء التجريبية.

مأخوذ عن : Mao Tsé Toung : Ecrits choisis
Tome 2 Maspéro 1973

النظرة الاقتصادية والتقوية والعلمانية

بالرغم من كل تعقيدات ظواهر الحياة الاجتماعية فإن علم تاريخ المجتمع يمكن ان يصبح علما يعادل في دقته البيولوجيا مثلا ويقدر على استعمال قوانين التطور للقيام بتطبيقات عملية . . . وإذا اعتبرنا ان الطبيعة والوجود، والعالم المادي هو المعطى الاول بينما يمثل الوعي والتفكير المعطى الثاني المتولد عن الاول . . . فاننا نستنتج ان حياة المجتمع العملية تمثل المعطى الاول بينما تمثل حياته الروحية المعطى الثاني المتولد عنها اي ان حياة المجتمع المادية تمثل واقعا موضوعيا يوجد مستقلا عن ارادة الانسان، بينما تمثل الحياة الروحية للمجتمع انعكاسا للواقع الموضوعي، انعكاسا للوجود.

...وبالنتيجة فان المهمة الاولى لعلم التاريخ هي دراسة واكتشاف قوانين الانتاج وقوانين تطور قوى الانتاج وعلاقات الانتاج، اي قوانين التطور الاقتصادي للمجتمع . . . ان الخاصية الثانية للانتاج تتمثل في ان تغيراته وتطوره يبدأ دائما بالتغير والتطور اللذين يحصلان في قوى الانتاج واولا وبالذات على وسائل الانتاج وبالتالي فان العنصر الأكثر تحركا والاكثر ثورية في الانتاج هو قوى الانتاج. في البداية تتغير وتتطور قوى المجتمع المنتجة وتتغير باعتبارها وفي تماثل معها علاقات الانتاج بين الناس اي علاقاتهم الاقتصادية». مأخوذ عن : J. Staline : Questions du Léninisme (تعريب المؤلف)

في هذا الاطار أريد أن اعرض نصا لماركس اعتمد عليه ستالين لتركيز تصوره الاقتصادي التقنوي وهو نص مأخوذ من كتاب ماركس : Misère de la philosophie يقول ماركس في هذا النص :

«ترتبط العلاقات الاجتماعية ارتباطا وثيقا بقوى الانتاج. فبالحصول على قوى انتاج جديدة يغير الناس نمط انتاجهم وفي تغييرهم لنمط انتاجهم يغيرون كل علاقات انتاجهم. ان الطاحونة اليدوية تعطيك مجتمع الاسياد الاقطاعيين، وتعطيك الطاحونة البخارية مجتمع الرأسمالية الصناعية.»
(تعريب المؤلف)

ان ماركس قد اسس علما جديدا : (النظرة العلمانية)
Althusser

علم تاريخ التشكيلات الاجتماعية، او علم التاريخ.
ان تاسيس ماركس لعلم التاريخ هو اكبر حدث نظري في التاريخ المعاصر. سوف أستعمل صورة.

يوجد عدد معين من العلوم. يمكن القول بانها تمثل مكانا معيننا ضمن ما يمكننا ان نسميه حيزا نظريا مكان، حيز. انها تصورات مجازية. ولكنها تفسر وقائع معينة : المجاورة بين علوم معينة، العلاقات بين علوم متجاورة، سيطرة علوم معينة على غيرها من العلوم. ولكن في نفس الوقت علوم غير متجاورة. كل علم على حدة (مواقع منفصلة، في الفراغ : مثلا علم التحليل النفسي).

يمكننا الان، بالعودة الى الوراء، ان نعتبر ان تاريخ العلوم يكشف عن وجود مجالات علمية، ضمن الحيز النظري الغامض.

- 1) مجال الرياضيات (افتتحه الافريق).
- 2) مجال الفيزياء (افتتحه غاليليه).
- 3) افتتح ماركس المجال الثالث الكبير : مجال التاريخ.

ان المجال، بمعناه المجازي هذا، ليس فارغا اطلاقا :
«ان «تحتله» دائما نظم ايديولوجية شتى، متنوعة، لا تدرك

انتماءها الى هذا المجال. فمجال التاريخ مثلا، كان يحتله قبل ماركس الاقتصاد السياسي، وفلسفات التاريخ، الخ...

ان افتتاح مجال بعلم اقليمي لا يعارض فقط حق الممثلين القدامى والقابهم، ولكنه أيضا يعيد كليا تشكيل معالم صورة «المجال» القديمة. لا يمكننا الاعتماد الى ما لا نهاية على المجاز - والا لتحتم علينا القول بان فتح مجال جديد في المعرفة العلمية يفترض تغيير الارضية، او قطيعة نظرية Coupure Epistemologique الخ، انني ادع لكم امر العناية باشغال الخياطة المؤقتة والضرورية لربط كل هذه الاستعارات بعضها ببعض. ولكن، علينا في يوم من الايام ان نقوم بعمل ما مختلف عن عمل الخياطة والترقيع.

ان فتح «مجال» علمي يتسم، في الزمن وفي النظرية، بطابع القطيعة ليست هذه القطيعة لا محكمة ولا مكتملة : ولكنها قطيعة متواصلة تمهد السبيل لحيز نظري تفتحه بعمل لا نهاية له. ان هذا العمل الذي لا نهاية له ان هو الا الممارسة العلمية، بشكلها المميز.

موضوعة 4 -

ان كل اكتشاف علمي كبير يحتم تحولا كبيرا في الفلسفة. فالاكتشافات العلمية التي تفتح المجالات العلمية الكبيرة تشكل المحطات الكبرى في تحقيب تاريخ الفلسفة :

- المجال الاول (الرياضيات) : ولادة الفلسفة : افلاطون.
- المجال الثاني (الفيزياء) تحول عميق في الفلسفة : ديكارت.
- المجال الثالث الكبير (التاريخ، ماركس) ثورة في الفلسفة، انبأت بها الموضوعة الحادية عشر عن فيورباخ. نهاية الفلسفة الكلاسيكية، ليس كتفسير بل

كتغيير للعالم.

كلمة محجبة، خارقة، ولكنها محجبة. كيف يمكن للفلسفة ان تكون تغييرا للعالم ؟ واي عالم ؟

مهما يكن من امر، يمكننا ان نقول عن هيجل : ان الفلسفة تاتي دائما بعد ما يحدث. انها دائما متأخرة. انها دائما مؤجلة. اننا نعتبر ان لهذه الموضوعه اهمية خاصة : ان الفلسفة

الماركسية او المادية الجدلية لا يمكنها الا ان تكون متخلفة عن علم التاريخ. ان كل فلسفة بحاجة الى بعض الوقت لكي تولد وتتبلور وتنمو بعد الاكتشاف العلمي الكبير الذي حتم سرا ولادتها.

هذا مع العلم ان علمية اكتشاف ماركس قد انكرها كل الاختصاصيين في هذا المجال وحاربوها بدون هوادة. وما زالت العلوم الانسانية تحتل المجال القديم. وهي تتسلح الان باخر انواع التقنية الحديثة في الرياضيات، الخ، ولكن قاعدتها بقيت دائما قائمة، كما في الماضي، على نفس المعطيات الايديولوجية البالية، مع بعض التعديل الحذق. ان نمو العلوم الانسانية المدهش، بغض النظر عن بعض الشواذ المحوظ، وخاصة في العلوم الاجتماعية، ان هو الا اعادة تطبيق المعطيات الكنسية التقنية القديمة المتعلقة بالاندماج وباعادة الاندماج الاجتماعي : تقنيات ايديولوجية.

انها الفضيحة الكبرى في كل التاريخ الثقافي المعاصر : الجميع يتحدثون عن ماركس والجميع تقريبا يعتبرون انفسهم ماركسيين في ميدان العلوم الانسانية والاجتماعية. ولكن من كلف نفسه غناء قراءة ماركس عن كتب لفهم جدته ولاستخلاص النتائج النظرية؟ وما زال اختصاصيو العلوم الانسانية، الا قلة منهم ! يشتغلون بمعطيات ايديولوجية بالية وذلك مئة سنة بعد ماركس، كما بقي الفيزيائيون الارسطوطاليسيون، خمسين سنة بعد غاليليله، يعملون بالفيزياء. من هم الفلاسفة

الذين لا يعتبرون انجلز ولنين جهالا بالفلسفة ؟ اعتقد بانهم معدودون على اصابع اليد. ان كل الفلاسفة الشيوعيين لا يكونون تقديرا لا لانجلز ولا للنين. من هم الفلاسفة الذين درسوا تاريخ الحركة العمالية، تاريخ ثورة 1917 وتاريخ الثورة الصينية ؟ ان لماركس وللينين والشرف الكبير بان يشاركا فرويد مصيره وذلك بكونهما مثقفين منبوذين، وبكونهما، حين نتحدث عنهما، مفدورين مثله. ان هذه ليست فضيحة. اذ يسود بين الافكار^{١١} الفلسفية ما نسميه موازين قوى، هي موازين قوى ايدولوجية، اي سياسية. اذ ان الافكار الفلسفية البورجوازية هي في السلطة. ومسألة السلطة هي المسألة رقم I في الفلسفة ايضا. ان الفلسفة هي في الواقع سياسة بالتحديد الاخير. مأخوذ عن : دراسات لا انسانوية - ترجمة سهيل القش

د. فواد زكريا

الجدور الفلسفية اللبنانية
الجدور الفلسفية اللبنانية
الجدور الفلسفية اللبنانية
الجدور الفلسفية اللبنانية

دروس الجامع

طبق آخر ما قررته وزارة التربية الوطنية للباكالوريا

طبعة جديدة ومنقحة

الأدب
التاريخ
الجغرافية
فكر إسلامي
الفلسفة

صدر عن منشورات «عيون المقالات»

- مبادئ في علم الأدلة : تأليف رولان بارت، ترجمة محمد البكري
- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب : الدكتور أمجد الطرابلسي
- سوسولوجيا الثقافة : الطهر لبيب
- دروس في جغرافية المناخ - 1 - عناصر المناخ : أحمد بلاوي
- العرب والنموذج الأمريكي : د. فؤاد زكرياء
- عصر البنيوية : إديث كروزيل، ترجمة : جابر عصفور
- تلك الرائحة (قصص) : صنع الله إبراهيم
- رباعيات نساء فاس (المرويات) : محمد الفاسي
- المكتبة السينمائية - 1 - التصوير : لوي دي جانتي
- المكتبة السينمائية - 2 - الاخراج : لوي دي جانتي
- المكتبة السينمائية - 3 - الحركة : لوي دي جانتي
- المكتبة السينمائية - 4 - المونتاج : لوي دي جانتي
- الجذور الفلسفية للبنائية : د. فؤاد زكرياء
- يتابع الثقافة ودورها في الصراع الاجتماعي : بوعلي ياسين
- الماركسية والنقد الأدبي : تيري إيجلتون، ترجمة : جابر عصفور
- عبقرية الصديق (مقالات تحليلية) : مجموعة من المؤلفين
- رجال في الشمس (دراسات تحليلية) : مجموعة من المؤلفين
- الحركة السلفية : مجموعة من المؤلفين
- مدخل الى السيميوطيقا 1 : بإشراف سيزا قاسم
- مدخل الى السيميوطيقا 2 : بإشراف سيزا قاسم
- انتفاضة الشاوية : أحمد زيادي
- الأسطورة والرواية : ميشيل زيرافا، ترجمة : صبحي حديدي
- في التنظير والممارسة ، دراسات في الرواية المغربية : لحמידاني حميد
- الأسطورة والمعنى : كلود ليفي ستراوس، ترجمة صبحي حديدي
- القصيدة المغربية المعاصرة بنية الشهادة والاستشهاد : عبد الله راجع
- دروس الجامعة : جماعة من الأساتذة

- جرب حظك مع سمك القرش - مسرحية : يوسف فاضل
- حركية الرأسالية : ف. بروديل - ترجمة محمد البكري
- التراث بين السلطان والتاريخ : عزيز العظمة
- الصمت الناطق (قصص) : خنانة بنونة .
- سوسولوجيا الغزل العربي : الشعر العذري نموذجاً : الطاهر لبيب
- الأغنية الشعبية الجديدة (ظاهرة ناس الغيوان) : حنون مبارك
- الوعي الذاتي : د. برهان غليون
- قبل السقوط : فرج فودة
- ويكون إحراق أسائه الآتية (شعر) : محمد السرغيني
- في الحب والحب العذري : د. صادق جلال العظم
- المعرفة والجنس من الحدائث إلى التراث : عبد الصمد الديالمي
- مداخل الى علم الجمال الأدبي : عبد المنعم تليمة

- في الفكر الجدي رضا الزواري
- مفهوم الأدبية في التراث النقدي توفيق الزيدي
- البنى النحوية نعوم تشومسكي
- الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي الحديث محمود أمين العالم
- الكارثة التي تهددنا صلاح عيسى
- الممكن من المستحيل عبد الجبار السحيمي
- الرواية والواقع ل. كولدمان، ترجمة رشيد بنحدو
- في تاريخ الأدب : مفاهيم ومناهج حسين الواد
- الماركسية والفن الحديث ابراهيم فتحي
- الايديولوجيا الباردة كوستاس بابايانو
- التفكير البلاغي عند العرب حمادي صمود
- معجم المصطلحات الأدبية ابراهيم فتحي
- الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية ل. ألتوسير

الفهرست

الفصل الأول

- 5 طرح القضية
- 7 الموقف الأول : الموقف الانطولوجي
- 9 الموقف الثاني : العلماني الوضعي
- 13 الموقف الثالث : فلسفة البراكسيس

الفصل الثاني

- 17 جدلية الفكر والواقع
- 17 حول العلم والايديولوجيا
- القول العلمي
- التمييز بين القول العلمي في مجال الطبيعة وفي مجال
- 27 المجتمع

الفصل الثالث

- 37 حول قوانين الجدلية
- تتبع تاريخي لنشأة الفكر الجدلي وتطوره
- 43 الفكر الجدلي الما قبل ماركسي
- ظروف نشأة الفكر المادي الجدلي وتطوره

الفصل الرابع

- نصوص مختارة ومبوية
- 63 اشكالية الجدلية في القديم
- 65 الجدلية الحديثة